أ . د . حلمى محمد القاعود

حصيرة الريف الواسعه
مواقف نقديه .. وقضايا ثقافيه

١٤٣١هـ = ٢٠١٠م

استهلال

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .. وبعد :

فهذه فصول قصيره كتبتها فى سنوات قريبه مضت ، تناولت فيها بالنقد والتحليل نصوصا أدبيه ونقديه ودراميه ، وتحدثت فيها عن بعض الأعلام المعاصرين فى مناسبات مختلفه ، وتوقفت عند بعض القضايا التى تتصل اتصالا وثيقا بالحركه الأدبيه والفكريه الراهنه ، ومازالت هذه القضايا فى معظمها تراوح مكانها ، وتشكل حاله سلبية فى واقعنا الثقافى !

سميت هذه الفصول " حصيرة الريف الواسعه " إنطلاقا من المقوله الشعبية الشائعه : " حصيرة الصيف واسعة " فقد كتبتها فى " الريف " حيث أسكن و أقيم وأمارس حياتى العائليه والإجتماعيه . والقرية بالنسبة لى هى المبتدأ والخبر .. ثم إن كثيرا من مادة هذا الكتاب تنتسب إلى الريف وأهله ومشكلاته .. وأخيرا ، فإن تنوع المادة وتشعبها التى يطالعها القارئ تجعل "حصيرة الريف " مجالا ملائما للمشابهة فى الرحابة والاتساع .

معظم النصوص التى قدمتها تنتسب إلى أدباء من الشباب أو أدباء ناضجين أهملهم النقد ولم يلتفت إلى إنتاجهم أو كتاباتهم ، فتناولت ما كتبوه فى إيجاز للتعريف بهم وتقديمهم إلى الجمهور القارئ ، آملا أن يكون ذلك بداية لمتابعتهم وتحليل إبداعهم ونصوصهم .

وهناك حديث عن بعض الأعلام المعاصرين الذين رحلوا ، دون أن تتوقف عندهم أجهزة الإعلام الأدبى كما ينبغى ، أو تشير إلى بعضهم مجرد إشارة ، إعتمادا على نظرة أحادية تسود الحقل الأدبى ، وتجعل صاحب المبادرة فى "العلاقات العامة " هو الأكثر حضورا وبروزا واهتماما ، ولكنهم – أى هؤلاء الأعلام – أصحاب إنتاج له قيمة لا تبلى ، وجهد لا ينكر ، مما يجعل من الضرورى الالتفات إليهم ودراسة إنتاجهم بالجامعات والدوريات المتخصصة ، لكشف ما بذلوه من جهود ، وما قدموه من إبداع ونصوص .

أما قضايا الحقل الثقافى ، فهى كثيرة ومزعجة ، ومازالت حتى الآن تمثل حالة مأسوية ، جعلت الثقافه المصريه فى مجموعها تتراجع ، وتتخلف عن أداء دورها الرائد الذى كانت مصر تفاخر به وتزهو ، والأسباب فى كل ذلك معروفة ، وناقشت بعضها ، آملا أن يتحسن الوضع الثقافى ، وتسترد مصر مكانتها ، ليس بالمهرجانات والمؤتمرات ، ولكن من خلال إنتاج أدبى وثقافى له قيمته الفنيه التى تشدّ الآخرين وتجذبهم إليه ، وتدفعهم إلى احتذائه والاقتداء به .

صفحات هذا الكتاب دعوة إلى " تحرير الأدب والثقافه فى بلادنا ، ومناقشة الوسائل الجيدة ، والأساليب الناجحة إلى تحقيق هذا التحرير .... وهذه الدعوة فى النهاية تستحق من المخلصين من أدباء هذا البلد ومثقفيه – وليس كتاب السلطة- أن يدرسوا نواحى القصور فى ثقافتنا ، وعوامل التقصير فى واقعنا الفكرى ، حتى تكون الثقافة ، وفى مقدمتها الأدب ، قاطرة التحول والدخول إلى عالم أفضل وأكرم .

والله المستعان .

حلمى محمد القاعود

القسم الأول
قراءات نقدية

أولا : الغناء
ثانيا : السرد
ثالثا : رؤى

أولا : الغناء :

المقاومة والإيمان فى شعر يس الفيل

يس الفيل شاعر كبير هضمته الحياة الثقافية المعاصرة ، وغبنته غبنا شديدا ، لأنه يربأ بنفسه أن يكون من هذه (الشلة) أو تلك ، ثم أنه لايتمسك بأهداب أجهزة الدعاية والنشر التى تلح على المتلقى كى تذكّره من حين لآخر بهذا الأديب أو ذاك ،وأخيرا فهو ابن قريته التى لم يبرحها ، وظل وفيا لها ، فلها من أسمها نصيب " دست الأشراف " مركز كوم حمادة بحيرة .

فى الوقت ذاته ، فإن يس الفيل على امتداد نصف قرن تقريبا ، ينشر إنتاجه فى مصر وخارجها ويعرفه معظم أدباء الوطن العربى ، شاعرا مجيدا ، وقصاصا ، وزجالا ، وكاتب مقالة ، وصدر له حتى الآن ثمانى مجموعات شعرية ، بالإضافة إلى مجموعة قصصية واحدة صدرت عام ١٩٥٦ ، وله تحت الطبع أربع مجموعات شعرية ، من بينها مجموعة للأطفال .

ومن أحدث إصدارته ، مجموعة بعنوان " الزحف على حد المستحيل " ، وأخرى بعنوان " حصاد الإيمان " ، والمجموعتان تمثلان محورين من أهم المحاور فى شعره ، وهما القضايا القومية ، والقضايا الإيمانية ، لأنه لم يتخل عن واقعه ، ولم ينصرف إلى القضايا العبثية – إن صح أن تسمى – كما فعل آخرون ممن يسايرون الموجات المرتفعة أو المنخفضة ، ولم يفعل ذلك نتيجة لضعف فى مستواه الفنى ، فهو بشهادة من كتبوا عنه وتناولوا شعره من الشعراء المجيدين الذين يملكون الأدوات الفنية الناضجة . وقد صقلتها تجارب السنوات الطويلة . وحرفة العم المديد . . ولكنه فعل ذلك عن يقين وإيمان .

تحتل القضية الفلسطينية اهتماما كبيرا فى شعر يس الفيل ، يعبر عنه أحيانا بطريقة مباشرة ، وأخرى بطريقة غير مباشرة ، ولعل قصيدته " الزحف على حد المستحيل " التى صارت عنوانا لإحدى مجموعتيه الشعريتين السابقتين تمثل هذا الاهتمام خير تمثيل ، فهى تشير إلى أهل الوطن السليب ، وقد انتفضوا ضد عدوهم الغادر ، وانقضوا عليه بلحمهم العارى يواجهون دباباته ورصاصه الحى دون خوف أو وجل ، يسعون إلى الشهادة تحريرا لأنفسهم ومقدساتهم وأرضهم . ومن خلال السرد الدرامى الذى يعتمد على الحكاية والحوار وخطاب الآخر البعيد ، ينسج محنة الشعب ويعبر عن بطولته الفريدة فى صيغ المقاومة، من خلال لغة مجنحة وتصوير حى وموسيقى متناغمة . انظر كيف يفتتح قصيدته مصورا الواقع الراهن الذى

يطفح بشراسة العدوان و صلابة المقاومة فى وضع غير متكافئ تشير إليه ألفاظ الغربان والغدر والبلابل والسلاسل والعصافير والقنابل :
[شاخت الغربان / وانقضت على الغدر البلابل / أحرق الغيظ السلاسل / والعصافير استماتت / لم تخف عصف القنابل ..]
ومع أن الدنيا تصورت أن كل شيء صار مستباحا للأعداء بالحديد والنار والنابالم ، حتى مات الوطن والشعب فإن شيئا واحدا لم يمت ، وهو بذرة الإيمان ، التى مدت جذورها عبر الفواصل ومن خلال الإشارة إلى الرمز التاريخى ، واستدعاء قصة أبرهة والطير الأبابيل ، ليترافق مع بقاء بذرة الإيمان وإمتداد جذورها ، فضلا عن التشبيه الضمنى بين أبناء الحجارة الذين يتصدون للعدو بمدرعاته والطير الأبابيل التى تقصف الأفيال الضخمة وهى تسحق من يعترضها ، ونعلم نتيجة الصراع وتشابهها .
والشاعر لايكتفى باستدعاء قصة هدم الكعبة على يد أبرهة وأفياله ، ولكنه يشير إلى قصة السيدة مريم العذراء وابنها المسيح عليه السلام من خلال دلالات شتى تنتهى إلى التأكيد على انتصار البشارة وتحقيق الحلم :
[فهبى يا عصافير الجليل / شاخت الغربان / لكن .. / كلما انقضت على الغدر البلابل / واستمات الزحف جيلا بعد جيل / لن يرى فى الأرض شيء ما / يسمى مستحيل].
يمتد محور المقاومة على أساس الإيمان عبر قصائد المجموعتين (الزحف على حد المستحيل) و (حصاد الإيمان) ، ويأخذ صورا متعددة ، ومحور الإيمان من وجه آخر هو أساس المقاومة ، ولذا فإن الإيمان يقتضى استدعاء كل القيم النبيلة التى تعيد الإنسان العربى إلى أخلاقه النقية الكريمة وتؤهله للمقاومة الحقيقية فى ظل الظروف القاسية التى يرمز إليها بالجوع والظمأ والسراب .
على كل ، فإن صيحة الإيمان ترتفع عبر أبيات يس الفيل ، لأنها تتغذى على مقاومة الشر أيا كان والوصول إلى ينابيع الحب .
[فإن قوافل الإيمان إن صمدت / وإصرار الحب إذا استمات / وصحت الأسباب / فإن خطا المحبة / ليس تمنعها عن الأحباب / أسوار ولا أبواب]
ويكشف الشاعر عن غايته من الإلحاح على المقاومة من خلال الإيمان وهى سعادة الإنسان ، [وحسبى / أحمل معزفى .. وأدور / بين سنابك الفرسان / ولاأبغى / سوى أن يسعد الإنسان]
ويلاحظ أن مجموعة " الزحف عل حد المستحيل " تأتى من خلال صياغة شعرية مختلفة عن المجموعة الثانية " حصاد الإيمان " الأولى تنسب إلى شعر التفعيلة ، والأخرى إلى شعر الشطرين الموروث ، ويلاحظ أن هذه

المجموعة تضم قصائد يتفاوت زمن كتابتها تفاوتا كبيرا قد يصل إلى مايقرب من ربع قرن بين أقدمها وأحدثها ، ولكنها فى عمومها ذات روح مشتركة تؤكد على خصائص الشاعر الفنية والموضوعية ، وتشير إلى الصياغة الطيعة التى تتدفق سهلة ويسيرة لدى الشاعر دون معاظلة أو تعقيد ، حيث تنساب صوره وتراكيبه وموسيقاه فى تناغم جميل ، ولعل فى الأبيات التالية من " أغنية .. إلى شهيد " تحمل شيئا من ذلك :

أراك وقد رحت عن عالمى تطرز بالنور وجه القمر
فهل كنت تدرك أن البقاء هو الذود عن أمل يحتضر
وأن الخلود .. خلود الفعال خلود البداية والمستقر ؟
فرحت تلبى نداء الخلود وكنت على موعد والقمر ؟

***

شاعر القلب الأخضر

محمد محمد الشهاوى ، من شعراء الأصالة فى فترة السبعينيات فى القرن العشرين ، وهو من مواليد ١٩٤٠ بإحدى قرى مركز قلين بمحافظة كفر الشيخ ، مازال يعيش بها حتى اليوم ، بعيدا عن أضواء القاهرة وزحامها ، وأخلص لقضية الشعر مذ عرف طريقه إليها ، ولم يأبه لتجاهل النقد والنقاد ، وخاصة حين آثر أن يكون بعيدا عن الانتماء لهذه الجماعه أو تلك ممن بيدهم التلميع والتقديم ، وحصاد إبداعه حتى اليوم ست مجموعات شعرية ، ثورة الشعر ، ١٩٦٢ ، قلت للشعر ١٩٧٣ ، مسافر فى الطوفان ١٩٨٥ ، زهرة اللوتس ترفض أن تهاجر ١٩٩٢ ، إشراقات ٢٠٠٠ ، أقاليم اللهب ومرايا القلب الأخضر ٢٠٠١ ، وله تحت الطبع مجموعة من الدراسات حول بعض أبناء محافظتة من النقاد والشعراء بالاضافة الى سيرته ، وقد علمت أن إحدى المجلات المحتجبة قد أصدرت حوله ملفا يضم بعض المقالات والدراسات عن شعره .

ومجموعته الجديدة " أقاليم اللهب ومرايا القلب الأخضر " تمثل إلى حد كبير خصائصه الفنية التى تنتظم شعره فهو يملك القدرة الموسيقية على النظم التفعيلى ، والبيت ذى الشطرين ، كما يملك القدرة على التقفية فى الشكلين ، وإن كان انتاجة من الشعر ذى الشطرين قليلا ، وهو مثل مجايليه من شعراء السبعينيات يستخدم البناء الدرامى فى قصائده الغنائية ، معتمدا على الحوار أو القصة ، ثم إنه يستدعى الرمز التاريخى أو الواقعى ليتحدث من خلاله عما يريد من موضوعات أو قضايا ترتبط بالأحداث الجارية .. وهو يصوغ شعره فى كل الأحوال من خلال تصوير حى ، يبدو فى بعض الأحيان قريبا من التصوير الذهنى ، وفى بعضها الآخر قريبا مما يعرف بتراسل الحواس .

إن محمد محمد الشهاوى ، شاعر يرتبط بواقعه وأمته ، لم تغره التقاليع التى يطلع بها البعض من حين لآخر ، ليقدموا مايسمى بشعر الجسد ، أو شعر التجديف ، بحجة كسر التابوهات ، ولم يدخل فى دائرة الإبهام أو الغموض المغلق ... إنه صاحب موقف من الحياة والكون ، لا يتكتم ولا يغمغم ، وأيضا لا يخطب ولا يتشنج ، وتستطيع أن تلمح ذلك فى كل قصائده ، بل إن إهداء المجموعة إلى (م.م.ش حين نتفق) يجعلك تدرك على الفور أن الحروف الثلاثه هى الحروف الأولى من إسم الشاعر نفسه ، وجملة " حين نتفق " كأنها تشير إلى مايمكن أن نسميه تطابق القول والفعل لديه ، فهو لا يعترف بنفسه إذا كان هناك انفصام بين شعره وواقعه ، ولكنه يمنحها هذا الإهداء إذا جرى التطابق وصار مايقوله هو ما يفعله .

قصائد المجموعه تحول الخاص إلى العام ، حتى مرثية الأب التى تبدو شأنا ذاتيا تتحول إلى شأن عام يخص الآخرين ، لأن الفقد ليس قاصرا على " مجرد جسد " ، ولكنه خسارة عامة لمجموعة من القيم والمشاعر يصعب تعويضها .
وتمثل مصر بآلامها وآمالها محور أساسيا ينظم معظم قصائد المجموعه ، وإن لم يصرح الشاعر بذلك فى معظم الأحيان ، وهى على كل بالنسبة له : السنا ، وابنة الشهب ، والحبيبة ، والمحبوب ، وأميرة عمره ، ودفء الحياه ، ونبض الروح ، والفرح المباغت ، واندفاق النور ، وخمر الانتصارات ، وكل المواويل ، والأشواق ، ... الخ ، أو هى كما عنون إحدى قصائده : " تتعدد الأسماء والمحبوب واحد "
فى قصيدته " هكذا قال حابى ، هكذا قالت إزادورا " يحكى قصة الوطن ، وتناقض أحواله من خلال رؤية الشاعر أو حابى ، { كل شيء ها هنا / بالفرح الكونى يوحى / فلماذا لاأرى غير الجروح ؟ } وتكثر فى القصيدة النداءات والاستفهامات أو التساؤلات التى تحمل معانى متعددة ، ولكنها تتركز حول المستقبل الذى يبدو غامضا ومجهولا { أيها النهر الذى يسكن روحى / ها أنا بين إيديك / أتملى ضفتيك / - ظامئ النفس / أناجيك وحيدا : / هل لما قد ضاع / منا تحت أنقاض الليالى / أن يعودا / .. } وتمتد القصيدة لتقول أو تحكى على لسان حابى آلاما وآمالا ممتدة من أزمان بعيدة ، وإلى أزمان بعيدة فيما يبدو أيضا ، ومن هنا يخاطب حزينا يائسا : (أى الهى .../ آه مما نحن فيه : / غربة تسكن غربة : / ومتاه يتماهى / فى متاهه / والضوارى / والحرابى / والتنانين : / مدى سادية / تنهال فرحى / فوق أوداج الضحايا / فى عتو همجى الزهو / مأفون التباهى !)
ويصل التساؤل الحزين أقصى غاياته وهو يرصد مصيره المؤلم ، وهو الذى كان ينتظر على الأقل نوعا من المكافأة أو الاعتراف بالجميل ، وبدلا من ذلك صار ضحية بلا ثمن : (ولماذا أسلمتنى الضوارى / وأنا جنديها المنذور / للحر / وللقر / وللكر / فؤادى ../ وجوادى ، / وأنا حربتها النجلاء / فى يوم الجلاد) ، ويستمر الشاعر فى رصد مفارقات الواقع التى تمنح من لا يستحق ، وتمنع عمن يستحق ، ومن خلال مزج الخاص بالعام ، والاعتماد فى تصويره على الاستعارات والتشبيهات ، تخرج " إزادورا " لتزيل عنه اليأس ، وتزرع فى قلبه الأمل ، وتعده بمستقبل مشرق يمسح الآلام ، ويضمد الجروح ، بما تضفيه عليه من صفات وسجايا ترد إليه " اعتباره " – كما يقول أهل القانون – (أيها الوجه (الذى من أجلنا / أقصيت قهرا) / فتنزى القلب وحيدا مستطيرا / ليس للعاشق إلا أن يصيرا / جلنارا

/ ونثارا / ودما يحمله الموج شهيدا / ..) ولكن الراوى يشكك فيما تقوله " إزادورا " حيث يرى الأمور كما هى لم تتغير وإن تغير الشكل وحسب (إنه التاريخ مكرورا / ولاشيء جديد ...) .
ومع ذلك فإن قصائد الشاعر الأخرى وخاصة مايتعلق بالمقاومة فى الأرض المحتلة تبدو أكثر تفاؤلا وإشراقا وصلابة ... وفى كل الحالات ، فإن الحس الدرامى كما بدا فى قصيدته الطويلة (حابى وإزادورا) ، يؤهل الشاعر للمسرح الشعرى ، حيث تكون الإضافة الحقيقية لشعرنا المعاصر ، والشهاوى شاعر أصيل يملك مقومات الشعر موهبة وحرفة وثقافة وموقفا ، مما يجعله من فرسان الشعر الحقيقيين حتى لو عاش فى أعماق الريف .

***

غدا تشرق الشمس

" غدا تشرق الشمس " مجموع شعرية للشاعر الأديب " عبداللطيف الجوهرى " تحمل هموم الأمة العربية والإسلامية من خلال جماليات مرهفة ، وقيم مضيئة ، والشاعر من الأدباء الجادين المجيدين ، يقرأ فى دأب ، وينتج فى إخلاص ، وقد قدم للمكتبة العربية أكثر من كتاب يحمل موضوعات خصبة ، ومعالجات طيبة ، ومجموعته الشعرية تصبّ فى هذا الاتجاه ، ويمكن أن نرصد بعض ملامح المعالجة الشعرية فى العديد من المحاور ، أبرزها مايلى :

* محور القضايا الوطنية والقومية والإسلامية ، ويكاد يكون المحور الأبرز فى المجموعة ، حيث يعيش الشاعر بوجدانه وعاطفته وأحاسيسه ومشاعره وعقله وتفكيره ، مايمر بالأمة من انكسارات وماتعانيه من جراحات ، وما تحلم به من آمال ، لذا نرى معظم قصائده تعبر عن هذه المعايشة مباشرة أو من خلال المجاز والرمز فى صورة مبسطة وجميلة تتفاعل مع القارئ أو يتفاعل هذا معها فى ود حميم . ولأن الشاعر يملك تصورا إسلاميا صافيا ، فإنه يعالج الآلام والآمال من خلال مايشير به هذا التصور ويرشد إليه ، ويظاهر هذا التصور معجم إسلامى واضح الدلالة تتكرر فيه مفردات النور ومرادفاته مثل السنا والفجر الصادق والنجم والشموس والضوء والإشراق والقناديل والصبح والصفاء ، والتقوى ، والدعاء ، والابتهال والتسبيح والشدو ، والطهر ومشتقاته ، والتوبة والجهاد والأنفال والقراءة والإعداد ، فى مقابل المفردات النقيضة مثل : الظلام والغيهب والحزن والدموع والأسى وغدر الذئاب وجيش اليباب والطغاة والبغاة والأحقاد ..

ولا شك أن معطيات هذا المعجم تصب فى خانة المقاومة وانتظار النصر ، وتعاكس التوجهات اليائسة المحبطة المستسلمة ، وهو اتجاه محمود ، يعد ضرورة من الضرورات التى تحتاجها الأمة والأوطان وخاصة فى هذه المرحلة التى بدا فيها كل شئ أسود ، وسادت فيها روح الانهزام والانكسار ، يقول الشاعر فى قصيدة " أشواق الفجر الآتى " :

دعينى أمنى النفس فى فجرنا غدا   فإنى أرى صبحا بآمالنا بدا
وقد نلمح الأشواق فى غيهب الدجى   ترجى لغيث قد مددنا له يدا
وقد تنبت الأزهار فى صفحة الربا   وقد كان صلدا وجهها بله الندى
وقد غير الله النفوس تحررت ..   ففاضت بنور الحق تغزو به المدى
..

ولا تخفى على القارئ عبر هذه الأبيات القليلة ملامح المعجم الذى أشرنا إليه ، والرؤية التى يؤصلها ، إلى جانب هذه الموسيقى العذبة التى تنساب فى سلاسة وطلاقة لا تخطئها الأذن المتذوقة للشعر الأصيل ..
ثم إن الشاعر يوظف التكرار فى الأبيات السابقة ، وفى غيرها ، ليؤكد على رؤيته المتفائلة المربوطة بالأسباب المحققة للتفاؤل ، وهى أسباب كما نرى تقوم على مايسمى بالقياس المنطقى ، وتأمل استخدامه حرف التحقيق " قد " فى الأبيات الثانى والثالث والرابع ، لتتأكد من موقف الشاعر العقلانى إزاء مايحلم به أو يأمله لأمته المهيضة الجناح . إنه موقف بعيد عن الانفعالات الصاخبة التى لا تضع اعتبارا للواقع ، وهو موقف يؤمن بأن تغيير النفوس هو الطريق إلى تحقيق أسواق الفجر الآتى مستلهما الآية الكريمة (إن الله لا يغير مايقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ..) (الرعد : ١١)
ومعالجات الشاعر تمضى فى مجموعته على هذا المنوال الطيع الجميل ، ولكنها تخرج فى أحيان قليلة إلى المباشرة أو الهتاف الذى قد يجد له مسوغا من الواقع ، ولكن الشعر الطيع الجميل يجب أن يبتعد عن التماس مسوغات الواقع ، إلى التماس الجمال الفنى ، والشاعر قادر عليه بكل تأكيد ، ولعل قصيدة " فلسطين – البلقان " المثال الوضح على ذلك – يقول فيها :

زعموا بهتانا تضليلا　　كمسلسل خطف فلسطين
زعم للصرب بلا سند　　كمزاعم إخوة صهيون
أوهام الإفك مدججة　　بالبغى الغاشم ولعين
وليعلم قومى أنهمو　　من دون العلم بلا دين

فالأبيات والقصيدة عموما ، تترك الجمال الطيع ، إلى النثرية والمباشرة ، وتبدو فيها عملية النحت الصعب .
* محور القضايا الانسانية الشخصية ، ويدور حول المراثى والمدائح والمشاعر الخاصة تجاه الأحداث والأشخاص ، وهو محور حافل يفيض إنسانية وعذوبة ، ففى أنشودة الشاعر للدكتورة " نعمات أحمد فؤاد " مثلا يعتمد الموسيقى القصيرة السريعة ، ومن خلال استخدام حرف النداء " يا " وفعل الأمر بمعنى الدعاء ، يسكب مشاعره الفياضة تجاه الكاتبة التى تحمل هموم الأمة والوطن ، وتدافع عن الإسلام واللغة فى إطار من الصور الاستعارية والكنائية الجميلة :

دومى على الشفاه　　تغريدة الكماه

يا نجمة الحياه　　　　يازهرة المغلاه
وزندة الرماه　　　　ياعدة العفاه
ومنية الشداه　　　　يانغمة الحداه
وحجة الأباه　　　　يا نعمة الهداه ..

والشاعر صاحب ظواهر أسلوبية متميزة تسم شعره وقصائده بخصائص فنية معينة لا يتسع المجال لدراستها ومناقشتها ، ولكنها فى مجملها تتنبئ عن شاعر ناضج يملك موهبة حقيقية ، تملك أن تقول شعرا جميلا الآن وغدا بإذن الله .

***

طوف .. وشوف

الأدب نبض المجتمع وتعبير عن آلامه وأحلامه ، وقيمة جمالية تسمو بالذوق العام وتمتع المتلقين ، وتسعد الناس حتى لو كان يشرح سلبياتهم ونواقصهم ، وهى مهمة الأدب الفصيح والأدب العامى على السواء ، بل إن الأخير يقوم بدور مهم للغاية – وخاصة فى فترات الضعف والجمود – بالحفاظ على القيم الخلقية والإنسانية فى المجتمع والدعوة لشيوعها . وهو ما رأيناه على مدى العصرين العثمانى والحديث ، حيث قام الراوى والزجال والمنشد وأشباههم بمخاطبة الجمهور العامى بلسانه ، مضمنين خطابهم الدعوة إلى كل ماهو مضيء ونبيل ، محذرين من كل ماهو معتم وخسيس !

وحين نقرأ مجموعة من الزجل تعبر عن نبض المجتمع ، وتنتصر للقيم الرفيعة ضد القيم الهابطة ، فى إطار من الفن الجيد والأداء الممتع ، فهذا بلا شك كسب كبير أمام طوفان الأعمال الرديئه ، والأفكار غير الناضجة ، ومن النوع الجيد الممتع مجموعة زجلية للشاعر الزجال " وحيد الدهشان " أصدرها عزفا على نغمات المصور " صلاح الطاير " الذى يلتقط بآلته لقطات فنية دالة . من الواقع اليومى فى الشارع المصرى ، أو قل المجتمع المصرى عموما حيث كان أو يكون ، لقد حمل المصور آلته وطاف بها فى كل مكان وبحسه المرهف التقط مايثير التأمل والدهشة ، وقام " وحيد الدهشان " بالتعليق على هذه اللقطات زجلا مطبوعا يحمل روحا تواقة لنهضة المجتمع وتجاوز سلبياته . وتأتى هذه التعليقات فى إطار رباعيات أو خماسيات تعتمد على عنصر التركيز واستخدام اللفظة الموحية الراقية ، وأقول الراقية ، لأن العامية تحمل ألفاظا مفعمة بالرقى فى مقابل أخرى مكتظة بالقبح والدمامة ولا تحقق غاية فنية .

ولنا أن نتوقع أن لقطات " صلاخ الطاير " وزجليات " وحيد الدهشان " ستطوف بنا فى كل مكان وكل مجال ، بدءا من داخل الأتوبيس حتى أحداث السياسة اليومية ، مرورا بالأسواق ، وأقسام الشرطة والحقول والحدائق ، ومحلات الجزارة ، ولعب الأطفال ، وباعة الترمس ، والمجمعات ، والانتخابات ، والمدارس ، وحلاق الرصيف ، وسمكرى البوابير ، وصانع الفخار ، وبائع الجزر والمتسول ، والصائع .. الخ .

المفارقة تتمثل فى أن كثيرا من اللقطات قد تبدو عادية ومألوفة ، ربما لكثرة تكرارها ، وربما لوجودها معنا باستمرار ، فلا تثير تساؤلا ، ولا تبدى غرابة ،ولا تصنع دهشة ، ولكن الفنان سواء كان مصورا أو زجالا يرى فيها مالا يراه غيره ، ويرتبط بها شعوريا بالقبول أو الرفض ، يتفاعل معها

أو يتنـافر ، يـرى دلالـة غامضـة أو معنـى عميقـا ، فيقدمـه لنـا عبـر الزوايـا المتعدده أو المشـاعر المتميـزة ، مؤكـدا فـى الوقـت ذاتـه علـى قيمـة مـا . فـى لقطـة داخـل الأتـوبيس يجلـس أحـد الشـبان يـدخن سـيجارة ، مـع أن الحـاجز الزجاجى بينه وبين السائق يحمل علامتى تحذير تقولان " التدخين ممنـوع " مـن خـلال الرسـم والكتابـة ، ولكـن صـاحبنا يضـع السـيجارة فـى فمـه دون مبالاة ، ويصوغ الزجال المشهد المصور تحت عبارة " لو فيه شوية أدب " ويكتب رباعية زجلية تجسد الموقف الذى عبرت عنه العبارة السابقة .

قاعد يدخن وعارف إن ده ممنوع
والله فاكـــــرها شطارة .. وجـــــدعنه .. مخـــــدوع
سألت واحد كبير إيه السبب قاللى :
لو فيه شوية أدب كان ينتهى الموضوع

إن القيمة الخلقية التى تعـارف عليهـا العامـة وهـى " الأدب " بمعنـى إحتـرام الآخرين والنظـام والقـانون والأخـلاق مفقـودة لـدى صـاحبنا المـدخن ، فـراح يضـرب عـرض الحـائط بالآخرين والنظـام والقـانون والأخـلاق لأنـه – ومثلـه كثيرون – يعتقد أن سلوكه تعبيـر عـن الشـطارة والجدعنـه ، مـع أنهـا ليسـت كـذلك بالتأكيـد ، وسـوف نلاحـظ أن " الزجـال " يلجـأ إلـى " واحـد كبيـر " يسأله عن السبب ، لأنه من المفتـرض أن الكبـار – يقصـد كبـار السـن طبعـا لأنهم أكثر حكمـة وتجربـة – يعرفـون الإجابـة الصـحيحه والدقيقـة ، وهـى " شـوية أدب " التـى هـى معجـم شـعبى يـردده الجيـل القـديم وإن كـان الجيـل الجديد فى معظمه لا يعبأ به ، وهذا المعجم شـائع فـى المجموعـة الزجليـة (طـوف وشـوف) ويوظفـه " وحيـد الدهشـان " بـذكاء ليصـنع صـورا جميلـة ومؤثرة ، ولنأخذ مثالا آخر يكشف عن هذا المعجم واستخداماته الجيـدة فـى رباعية " مين يضربه قلمين " يقول فيها !

هاتوا تقاوى الحيا قوموا ازرعوه فدادين
علشان فى سوق القيم تتظبط الموازين
شوفوا الأفندى ماهوش عامل حساب للناس
يامين يقول له اختشى أو يضربه قلمين

والرباعية تعليق على منظر غير لائـق بـين فتـى وفتـاة فـى إحـدى الحـدائق ، ويتبـدى المعجـم الشـعبى هنـا وفيـا لقـيم المجتمـع والآداب العامـة ، وتأمـل تركيب " تقاوى الحيا " وتركيب " سوق القيم " وتركيب " تتظبط الموازين " وتركيب " شوفوا الأفندى " وتركيب " مين ... يضربه قلمين " ومناقشـة

هذه التركيبات تحتاج إلى مساحة كبيرة ، ولكن دلالتها لاتخفى على القارئ ، وكلها تصب فى استنكار الخروج على ماتعارف عليه الناس من احترام متبادل وحرص على مشاعر الغير .

" وحيد الدهشان " طاقة شعرية كبيرة ، ليس فى الزجل وحده ، ولكن فى الشعر الفصيح أيضا ، فهو يملك أدواته جيدا ، من لغة وبناء وتصوير وموسيقى ، فضلا عن وعى جاد بالواقع ، واستيعاب جيد للتراث ، وإخلاص تام لرسالته الأدبية .

***

ثانيا : السرد :

حكمة العائلة المجنونة

تمنيت أن أكتب عن هذه الرواية دراسة طويلة ، فهى مفعمة بالعديد من القضايا والخطوط ، وصاحبها " فؤاد قنديل " كاتب مثقف ومتمرس بالفن الروائى والقصصى ، وله إنتاج ملحوظ يصل إلى عدد غير قليل من الروايات والقصص القصيرة ، تناولت بعضها فى مناسبة سابقة ، وعذرى الآن فى الإيجاز يتعلق ببعض الظروف الخاصة التى تضغط لأترك أشياء أو أؤجل بعضها من أجل البعض الآخر .

" حكمة العائلة المجنونة " رواية حافلة بملامح واقعنا المعاصر ، بما فيه من انهيارات وانتكاسات ومظالم ومطامع وصراعات جعلت الأخ يأكل أخاه ، وصيرت معظم الناس مشغولين بجمع المادة والتضحية من أجلها بكل رخيص وغالى من القيم والأخلاق والأعراف ، بدءا بمن يبيع مبادئه حيث يتسلم منصبا مرموقا إلى من يبيع أمه فى سوق الإهمال والنسيان والأنانية ، مرورا بمن يتسلق على أكتاف الآخرين بالنفاق والكذب واللصوصية والتفاهة والانحطاط ... وفى الوقت ذاته ، فإن الرواية تقدم القابضين على الجمر ، الذين يواجهون الانهيارات بالصمود والاصرار والمواجهه .. إنهم ليسوا " سوبر مان " أو ملائكة ، ولكنهم بشر من لحم ودم ، تعتريهم لحظات الضعف والانكسار ، ولكن طبيعتهم الأصيلة تعالج ضعفهم ، وتجبر انكسارهم ... هؤلاء وأولاء ، تضعهم الرواية فى عدة خطوط متوازية تتحرك بمهارة لتقدم لنا صورا من السلوك الإنسانى فى أحواله المتدنية والأخرى المتسامية ...

هناك عائلة " يس الفار " الفقيرة البائسة التى تعيش فى حارة ضيقة متفرعة من شارع ضيق فى حى شعبى قديم ، بيوتة متهالكة ، وحياتة قاتمة فى مصر القديمة . وهناك عائلة " فتحى الدمنهورى " وأخوته وأمه فى الحى ذاته . وفيه أيضا عائلة ملاك التى تضم ابنه وابنته وزوجه المجنونة ، وفيه كذلك يحيى صقر وآخرون ، وعلى مقربة من الحى تقع فيلا " نرجس البارودى " وإخوتها ...وتتقاطع حياة هؤلاء الأفراد والعائلات ، ونجد نماذج متباينة تؤكد على خلل اجتماعى خطير من خلال واقعها وسلوكها وطموحها ، وهذه النماذج تتباين داخل العائلة الواحدة ، حيث نرى المفارقات التى تؤكد هذا الخلل ، فعائلة ملاك مثلا ، تقدم لنا الرجل الذى يجعل من مكتبته الصغيرة المتواضعة منارة للعقول فى الحارة الضيقة المعتمة ، لا يبحث عن الكسب أو المال الكثير ، ولكنه يكتفى بالقليل ،

ويسخر جهده ووقته لهداية المجتمع بما يكتبه من حكم يومية ويعلقها أمام مكتبته لعل من يطالعها يستفيد بها ، وفى الوقت ذاته نرى زوجه ترفض سلوكه وتحاول أن تفرض عليه أعمالا معينة كى يغتنى ويحقق لها طموحاتها فى الوصول إلى مستوى بعض أقاربها الأغنياء ...

ويحتدم الصراع بين الرجل والزوجه حيث يصر كل منهما على موقفه ورأية ، فتفقد الزوجة عقلها ، وينتهى بها المطاف إلى المستشفى ، وتقضى بها بقية حياتها ، ويتكرر الأمر نفسه ، بالنسبة للولد والبنت ابنى ملاك ، فالولد يمثل امتدادا لأمه ذات التوجه المادى ، ويقوده ذلك إلى البقاء فى باريس سنوات طويلة دون أن يفكر فى الرجوع إلى والده الذى يتشوق إليه ، أما البنت فتمثل امتدادا لأبيها ، وتعيش طلبا للقيم المعنوية وينتهى بها الحال إلى أزمة عاصفة كادت تودى بها ، بسبب تمسكها بمبادئها وعدم انصياعها لما يراد لها . ويعيش الأب " ملاك " مع أحزانه و آلامه وأشواقه أو شهوته إلى إصلاح العالم بالمودة والتراحم .

هناك " يحيى صقر " سائق السيارة الذى يتزوج " نرجس البارودى " العانس الغنية التى تنتمى إلى عائلة عريقة ، ويحلم بدخول مجلس الشعب ، ويحقق هذا الحلم بطرق غير مشروعة تكشف تجذر الفساد فى أركان المجتمع ، فى الوقت الذى يخفق أمامه أستاذ الجامعة والصحفية النابهة والمستشار القانونى وآخرون ، وما نجاح " يحيى صقر " وهيمنته على الحى إلا لنجاح الفساد فى اختراق عقول كثيرة ، ومع ذلك فإن الرواية تبشر بالقضاء على الفساد وسقوط الفاسدين ، وما حدث " ليحيى صقر " حين انكشفت ألاعيبه وخدعة على يد الشاب المثقف النابه " على جودة " خريج الفلسفة ، وبقية شباب الحى المتشوق إلى النور والطهارة والعمل البناء .

وترصد الرواية خطوط الفساد الذى يستغله المغامرون الأجانب الذين يدعون رغبتهم فى الاستثمار ، ولكنهم يطمحون إلى إفساد المجتمع وبث الانحلال فى أرجائه من خلال مشروعاتهم الترفيهيه والسياحية التى لا تثمر شيئا بالنسبة للشعب ، وفى الوقت ذاته تقدم الرواية لنا نموذجا لبعض أبناء الوطن الذين يسعون فى المقابل إلى بناء مشروعات ضرورية ومفيدة كما فعل " سراج البارودى " بإنشاء مصنع لأجهزة الفشل الكلوى الذى ينتشر فى ربوع مصر .

فى عائلة " الدمنهورى " تكمن مفارقات عديدة تكشف عن بؤس العلاقات الإنسانية بين أفراد الأسرة الواحدة . " رمزى الدمنهورى " ، مستشار رئيس الولايات المتحدة للشئون التربوية والتعليمية ، والحاصل على جوائز عالمية ، ويستقبله وزير التعليم فى المطار مع وفد رفيع المستوى ، يفاجأ

بأن شقيقه " فتحى الدمنهورى " قد طرد أمه من شقته نزولا على رغبة زوجته ، فتعيش فى الخرابة التى كانت قصرا فخما فى الماضى ، يأكلها الذباب ورائحة الروث والزبالة ، ولا ينقذها من هذا المصير البائس إلا امرأة حفظت لها جميلا قدمته لها ذات يوم حين علمتها " الخياطة " ، فأصرت مع زوجها وأولادها أن تقيم معهم إلى نهاية العمر .

ويبدو الخيط الأساسى فى الرواية قائما على توضيح العلاقة السوية بين المسلمين والنصارى من خلال عائلة " ملاك " وعائلة " على جودة " وبقية سكان الحى المسلمين ... إن الرواية تتوسل إلى بيان طبيعة التسامح فى العقيدة الإسلامية والشريعة النصرانية من خلال الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، التى يوظفها " فؤاد قنديل " مؤلف الرواية بحكمة ومهارة ، عبر الحوارات والوصف والأحداث ، مما يؤكد على قوة الحضارة التى صهرت جميع أبنائها فى بوتقة واحدة ، تقوم على العمل والجهد والتواصل والمصير الواحد . إنها " حكمة العائلة المجنونة " حين تغفل معطيات حضارتها ، وتسمح للأنانية والفساد والقبح ، أن تكون معالم المجتمع !

***

السبع الأشهب : تجليات الذاكرة

نادر السباعى ، ناشر من سورية الشقيقة ، ومن حلب تحديدا يخاطب القراء العرب فى كل مكان بمنشوراته الأدبية والثقافية ، ويكتب أحيانا بعض الموضوعات النقدية ، ولكنه فاجأنا مؤخرا بتقديم رواية جيدة تحمل هذا العنوان ، يستخدم فيها بناء روائيا متميزا يعتمد على الرسائل المتبادلة بين كاتب الرواية وبين فتاتين طالبتين تعيشان بعيدا عن العاصمة على حافة الصحراء أو فى قلبها ،ويعمد الكاتب الذى يعيش فى حلب إلى التخييل محاولا إقناع القارئ أنه مجرد صانع للرواية من خلال استخدام مصطلحات نقدية معاصرة ، ومن خلال حديث مباشر الى الفتاة التى يكتب اليها حول البناء الروائى ، فضلا عن بعض الاقتباسات من الكتب القديمة والمعاصرة مثل : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبدالرحمن الكواكبى ، وهكذا تكلم زرادشت لنيتشة ، والانيادة لفرجيل ، ورحلة الى جمهورية النظرية لعبد الله الغذامى ، ورواية " لقاء مع الجنرال " لجراهام جرين .. ورواية " المخطوط القرمزى للكاتب الإسبانى "أنطونيو جالا "..

هذا التخييل الذى يقنع القارئ أنه يصنع رواية مشتركة مع الكاتب يؤدى دورا فى تصنيف الرواية ، التى تستدعى التاريخ ، بطريقة منتقاة ، تشمل مراحل التاريخ الإسلامى منذ فجر الدعوة حتى سقوط الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى . والسؤال هو : هل هذه رواية تاريخية ، أو رواية سيرة ذاتية ؟ أم أنها تمزج بين الجنسين ، التاريخ والسيرة ؟

إن الكاتب / الراوى يتلقى رسالة من فتاة اسمها (وردة) يصفها بصفات عديدة ، معظمها يعود إلى المكان الذى تسكنه أو تقيم فيه ، وتعبر وردة عن إعجابها بما يكتبه الكاتب / الراوى ، وتستحثه على المزيد من الكتابة . فيحكى لها عن نفسه وظروفه ومايعانيه فى حياته الزوجية وطلاقه من امرأته ، ومشكلات الأولاد بعد الطلاق ، كما يحكى لها عن الحياة الثقافية ومفاسدها ، ومايعانيه من بعض زملائه فى الوسط الصحفى ، ومؤامراتهم التى جعلته بلا عمل بعد حصار لمقالاته وكتاباته ، ويحدثها عن صديقه العائد من باريس ، التى ذهب إليها ليدرس الدكتوراه ، فعاد ليجد نفسه بلا عمل أيضا ، لأن هناك من يقف حائلا دون الاستفادة بالكفاءات ، حسدا أو أنانية أو بيروقراطية ، وتشارك" وردة " صديقة لها اسمها " نسرين " – لاحظ المشترك المعنوى بين الاسمين – تكتب إليه متأثرة بصديقتها ، ولايتوانى الكاتب / الراوى عن الكتابة للصديقتين ، حيث صارت رسائله إليهما مسار اهتمام عائلى ، ويتجمع أفراد العائلة لقراءة مايكتبه الكاتب / الراوى ، ومتابعته ، حتى إن والد "وردة " الذى صار وزيرا مرموقا ،

وينتقل إلى العاصمة يتحول إلى قارئ شغوف لرسائل الكاتب / الراوى ، بعد أن كان فى أول الأمر رافضا لان تكتب ابنته إلى رجل لا تعرفه ...
وفى هذا الاطار العام للرسائل المتبادلة بين وردة ونسرين من جهة ، والكاتب / الراوى من جهة أخرى ، نقرأ التاريخ الذى يدور حول شخصية الجد الأكبر الذى تحمل الرواية اسمه وهو " السبع الأشهب " – لاحظ المادة المشتركة بين السبع ، والسباعى اسم عائلة المؤلف – وهو شخصية غير عادية تختفى من المنزل ، لتشارك فى الحرب العالمية الأولى تحت راية الخليفة العثمانى ، ولكنه يترك الجيش ويهرب إلى مصر ، بعد اكتشاف الخديعة التركية (!) وينضم إلى القوات العربية المحاربة مع الحلفاء سعيا لاستقلال العرب ، وبعد انهيار الحكم وعودة الخلفاء إلى البلاد العربية مستعمرين ومحتلين ، يعود السبع الأشهب منكسرا إلى حلب ، ليجد امرأته قد فقدت أحد ولديها التوأم ، فيعيش فى حزن عظيم !
وإذا كانت قصة الجد (السبع الأشهب) تمثل الخيط الذى ينتظم رسائل الرواية ، عبر تسعة وأربعين فصلا . فإن استدعاء التاريخ أو " تجليات الذاكرة " – كما يسميها الكاتب فى عنوان روايته – يبدأمن قصة الصوفية أو أهل الصفة من الصحابة الزهاد الذين عاشوا بالقرب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى المسجد النبوى ، وما طرأ على الصوفية فى القرون التالية من دخل وضلال وزيغ ودروشة ، ثم نطالع بشيء من التركيز والاهتمام حديثا مسهبا عن الاندلس وسقوط غرناطة ، وصراع الحكام العرب ، حتى استطاع الصليبيون دحرهم وإخراجهم من الأندلس تماما .
وتستعيد الرواية سيرة عبدالرحمن الكواكبى والمجاهدين فى زمانه من أجل الحرية ومحاربة الاستبداد ، وترسم صورة لأبطال عاشوا ورحلوا سعيا لحلم الحرية والانعتاق من ربقة الضعف والهزيمة ، فى العصر الحديث ، وزمن الحروب الصليبية على السواء .
ولا ريب أن الرواية ، وهى تستدعى التاريخ ، تجلو الذاكرة ، فإنها تعزف على وتر الواقع المشابه الذى يغصّ بالقهر والأحزان والقيود والهزائم ، أبسطها ما يسرده الكاتب / الراوى عما يلاقيه من عناء وحصار .. وكأن الرواية تعقد مقارنة ضمنية بين ما كان وما هو كائن ، وتحذر وتنبه إلى أسباب الخيبات والمحن التى تمر بها الأمة ، ومن ثم يمكن القول إن رواية " السبع الأشهب " تمزج بين استدعاء التاريخ والسيرة الذاتية حيث يحضر التاريخ والمؤلف حضورا واضحا ، حتى لو توسلت الرواية أحيانا بجو الأسطورة لتصنع " السبع الأشهب فى صورة من يخترق الحجب ، ويتجاوز المألوف ، ويرحل فى غموض ويعود دون مقدمات .

تحتفى الرواية – وهى الأولى للكاتب – بالصياغة حفاوة ملحوظة ، فاللغة عربية فصيحة ، تشف وترقى فى العديد من المواضع ، وتندر فيها أخطاء النحو ، وتستفيد بمعطيات العصر ، والفنون الأخرى فى تشكيل المشاهد والحوار والاسترجاع والشعر والتناص ، أضف على ذلك أناقة تعبيرية تشبة أناقة مايكتبه الشقيق الأكبر للكاتب وهو الأستاذ " فاضل السباعى " الروائى المعروف ، وتمتد هذه الأناقة لتشمل ترتيب الجمل والعبارات والفقرات وعلامات الترقيم ، فضلا عن إخراج الرواية طباعة ورسما فى صورة جميلة أنيقة .

***

أيام فى الأعظميه !

تزداد قيمة النص الأدبى حين يحتضن الإنسانية ، ويبث روح الجماعة والأخوة وينحاز إلى قضايا كبرى تتجاوز الذات الفرديه إلى المحيط العام ، وعندما قرأت سيرة ذاتية لأستاذ جامعى مرموق قبل فترة أحسست بالإحباط والأسى ؛ حيث كان احتشاده لنفسه وامتلاؤه بالنرجسية مثلا للغثيان وباعثا على الشفقة ، فلا قضية عامة تشغله ، ولا لحظه تسامح مع الغير تعبر سطوره ، ولا التماس لعذر يبرز من بين كلماته ، الناس كلهم تقريبا خطأ ، وهو الصواب الوحيد تقريبا فى الكون .. لم أندم على قراءة السيرة الذاتية ، لأن القراءة لها جانبها الإيجابى دائما ، ولكننى اغتبطت حين طالعت رواية تفيض إنسانية وحبا على الناس ، ومشاركة لهم ، ورؤية الجانب الآخر الذى يخفيه الجانب المعتم ، وقد أسعدنى أن تكون هذه الرواية لأديب من الريف المصرى الذى غيرته الظروف والأحداث ، فيكشف معالم جميلة وعذبة ونضرة فى قلب العتمة والمحنة ، ويقدم لنا نموذجا من أدب الغربة التى عرفها أهلنا فى العقود الأخيرة ، يقومون من خلالها بالبناء والتعمير، وإقامة مؤسسات العلم وإدارة الإنتاج لدى الأشقاء العرب فى ظروف صعبة وأحوال غير طبيعية .

يكتب " فريد محمد معوض " من قرية سامول مركز المحلة الكبرى غربية ، رواية جميلة بعنوان " أيام فى الأعظمية " ، يعبر فيها عن تجربة من ملايين التجارب التى عاشها الشباب من أمثاله فى العراق زمن حرب الخليج الأولى فيصور طبيعة الناس فى الوطن والغربة ، ويقدم نماذج مصرية وعراقية تتأثر بالواقع وتتفاعل معه ، وهى فى أخطائها قبل حسناتها ، تملك نفسا تواقة للأمن والسكينة والسلام ، ومع انحراف بعضها وإغراقه فى الخطأ فهى تسعى للاستقامة وتحلم بها وتحاول من أجلها .

عبدالرحمن بطل الرواية يحمل شهادة جامعية ، ويعمل فى مصنع نسيج نظير عشرين جنيها ، ويخرج من وردية إلى أخرى ، ويميل إلى الثقافة والقراءة ، ويرتبط مع فتاة " شروق " وهى طالبة فى الجامعة ، وتشارك فى أعمال الحقل بعد رحيل إخوتها إلى العراق .. عبدالرحمن يرى قسوة صاحب المصنع الذى لم يتردد فى ضرب عامل كبير السن كان يصلى ركعتين قبيل الفجر بنصل " حذائه " ، ويفصله مع غلام آخر يرعى " كوم لحم " ، وحين يرى صاحب المصنع كتابا بجوار عبدالرحمن يسخر منه ويصفعه ، ولكن عبدالرحمن يرد له الصفعة ويثأر للعجوز والغلام ، ثم يرحل إلى العراق باحثا عن الرزق كى يساعد أباه وأهله فيعمل فى مطعم

" تل الزعتر " بالأعظميه فهناك يتعرف على مصريين وعراقيين يمثلون نماذج إنسانية غنية .. ومن خلال المطعم الذى يملكه فلسطينى نجا من مذبحة تل الزعتر فى لبنان ، ومسجد الإمام أبى حنيفة النعمان وحى السفينة فى الأعظمية تكشف لنا الرواية مأساة شعوبنا عندما تساق إلى حروب بلا هدف ، ويذوقون ويلاتها فى شتى جوانب الحياة بدءا من البحث عن الخبز أو افتقاده حتى فقدان الحرية نفسها .

وقد نجحت الرواية فى التعبير عن قسوة الحرب وعبثيتها من خلال لقطات سريعة ، ولكنها عميقة ومؤثرة ودالة ، ولكن بشاعة الغربة والموت فى أثنائها تهيمن على الرواية ، ولعل موت سعد الصاوى ، فى الغربة ، ومحنة تسفير جثمانه إلى أرض الوطن أوضح الأمثلة على عذابات الغربة بعد سنوات من العناء ، مات سعد الصاوى ، الذى ترك أرضه وبناته السبع وزوجتة ليبحث عن بعض المال من أجل زواج الكبرى ، فيعمل فرانا بأحد المخابز ، ثم يموت فجأة ، ويقوم المصريون المغتربون بقطع العراق شمالا وجنوبا لجمع المال اللازم ثمنا لتذكرة الترحيل ، ونفقات إعداد الجثمان للسفر وتسهب الرواية فى وصف مشهد الترحيل والوصول والدفن والأسى الذى عم القرية حين استقبلت سعد الصاوى وودعته إلى مثواه .. وكأنها تقول – بل هى تقول – إن الغربة موت ، سواء كان الموت معنويا أو ماديا ، فلا فرق بين الحالين ..

وعبر لغة تستقى مفرداتها من الواقع الريفى المتميز ببساطتة وأصالته يسرد الكاتب أحداث روايته ، ويكشف من خلالها مأساة الفقراء فى أرجاء الوطن ، ومعاناتهم فى سبيل الوصول إلى الحد الأدنى من ضرورات الحياة ، ومن خلال حوار داخلى (مونولوج) طويل جدا ، هو حجم الرواية ، نعيش مع شخوص الرواية فى تحولاتهم وأحوالهم ، وإنى أعدها حوارا داخليا ، مع أن السرد يتنوع من خلال الضمائر الثلاثه ، وهو سرد لا يتوقف عند التفاصيل الدقيقة إلا بقدر مايكون التفصيل مهما وضروريا ، وقد يأتى التفصيل عبر رسالة غالبا ، ولكن الحوار يقوم أحيانا بتقديم الصورة مركزة ومؤثرة للحدث أو الحال ، وهو أيضا حوار مركز وموجز ودال . تأمل مثلا :

الحوار التالى بين " حنفى " وأصحاب العمل وهو يبحث عن عمل فيعود خالى الوفاض بعد أن يمر على الحوانيت والأسواق :

- تريدون عاملا ؟
- لا ... مانريد .
- تريدون عاملا ؟
- (يضحكون)
- تريدون عاملا ؟
- نريدك بصحة .
- تريدون عاملا ؟
- عندنا كثيرون .

وتكشف الأمثال الشعبية والموال الشعبى عن عمق مأساة الفقير الذى يتغرب ويتعذب بحثا عن الرزق فى ظروف غير مؤاتية ، وتنبع قيمة المثل الشعبى أو الموال من اقترابه من الوجدان الشعبى ومفرداته ، وهى ذات دلاله عميقة عمق التاريخ :

" جمل الأصيل خرمن كتر أحماله
ولا حد سمى عليه ولا حد قال ماله "

***

الفراشة واللهب
سيرة ذاتية لكادر شيوعى سابق

هذه سيرة ذاتية لمواطن يبحث عن الحرية والعدل والتقدم ، طوحت به السبل هنا وهناك ، فكان فى مقتبل عمره ضمن تنظيمات " الإخوان المسلمين " حيث انضم إلى الكشافة ، والشُّعَب فى مدينة طنطا ، ودخل السجن بسبب هذا الانتماء ، ثم انتقل الى التنظيمات الشيوعية وكان " كادرا " مهما فى مدينة الاسكندرية ، ودخل السجن أكثر من مرة ، وضيع الكثير من سنوات عمره الجميل وراء القضبان ، لدرجة أنه لم يتخرج فى كلية الطب إلا بعد أن تجاوز الثلاثين .

إنها رحلة عاصفة وقاسية ومؤلمة سجلها صاحبها تسجيلا حرفيا من خلال ذاكرة واعية رصدت تفصيلات يمكن أن تضيع فى زحمة الحياة وأحداثها ، خاصة وأن صاحبها تجاوز الستين ، ولكن قدرته الذهنية ، كانت أكبر من كل الحوادث وتراكمها ، فسجل ما انطبع فى نفسه ووجدانه ليقدم تجربة جديرة بالتأمل واستخلاص العبر .

كان يمكن للدكتور مأمون البسيونى ، أن يصوغ رواية فنية لها خصائص الفن الروائى ، ولكنه آثر أو فضل " الانبثاق " كما يقول ، لأن البناء الروائى وفق برنامج فنى " يخنق " أنفاسه ، ولأن الرجل طبيب ، ليست له دراية كاملة بالصياغة الدقيقة والتراكيب السليمة ، فقد حفلت سيرته بالأخطاء الإملائية والنحوية والتركيبية . إنه كاتب غير محترف ، ولكنه يحب الكتابة ويهواها مذ كان كادرا شيوعيا مبتدئا قبل يوليو ١٩٥٢ ، وهو إلى ذلك محب للزجل والشعر . يحفظ الكثير من النصوص التى كان ينظمها أو ينشدها رفاق المعتقلات والسجون ، تساعده على ذلك ذاكرته الحية .

فى هذه السيرة التى احتشدت لها لأسباب غير فنية ، فهى تخلو – كما أسلفت – من المهارات الفنية والحرفية واللغوية ، يحكى الكاتب على سجيته ، ويستطرد من موضوع إلى موضوع ، مما أحدث فجوات عديدة ، ولكنها مع ذلك تسجل لفترة من أخطر فترات الحياة السياسية فى مصر ، حيث اكتظت بالأحداث والهزائم ،والانتصارات والاحباطات ، ومع أن السياق العام يوحى أن الكاتب يائس وحزين على ماجرى وكان ، سواء على المستوى الشخصى أو القومى ، فإن القارئ لكتابه لا يخطئ بصيصا من أمل يعلن عن نفسه بطريق أخرى ، عبر كلمة أو إشارة أو لفتة فى ثنايا الصفحات التى تقرب من خمسين وأربعمائة من القطع الكبير .

يقول الكاتب : لم أملك كإنسان ، إلا أن أنهض ، أسير ، أقاوم ، أقف موقف المساءلة أمام النفس ، ما الذى يدفعنى غصبا إلى ما وراء الجسور ؟
أقتفى آثار المستقبل وأنبش فى المصير .
وهأنذا .. أنبش رمادى نفسه ، باحثا فى أعماق الزمن عن الذى لم يبعث بعد
.
ويستطرد الكاتب قائلا :
" وثيقتى هى الإنسان البسيط والعادى ، عذبه صنع التاريخ ، ولم يعجز أبدا عن تشكيل انطباعاته ونشرها أيضا .. حتى ولو لم يملك سوى عينيه وأذنيه كوسيلة اتصال " .
شخوص الكتاب حقيقيون يذكرهم الكاتب بأسمائهم ، وبعضهم مازال حيا يرزق ، فهم أسرته وزملاؤه فى التعليم العام والجامعى ووظائفه قبل التخرج فى كلية الطب وبعده ، وإخوانه أو رفاقه فى التنظيمات السرية ، بعضهم كان قريبا منه ، وبعضهم كان مجرد رفيق ، ولكنه فى كل الأحوال يسعى إلى استبطان ذواتهم ، وسبر أغوار نفوسهم ، وانتزاع ملامح إنسانية عامة تكشف صورة الإنسان فى حالات شقائه وسعادته ، أو حلمه وتحطمه ، أو انتصاره وانكساره ، ولعل أبرز هذه الملامح ما صوره الكاتب فى سجن المحاريق والسجون الأخرى ، من طرق التعذيب وإهدار إنسانية المعتقلين فى بشاعة لا يقبلها دين ولا عرف ولا قانون ... فى الوقت الذى يحظى فيه المجرمون من اللصوص والقتلة والخارجين عن النظام العام بوضع أفضل داخل السجون !
إن الكاتب يحفظ التفاصيل عن ظهر قلب ، ويرصدها بدقة ، ويضيف إليها قدرة المعتقلين من مختلف الاتجاهات على تجاوز العذاب المهين بصورة وأخرى ، والسمو على الواقع المتردى بوسائل عديدة .
ولعل الكاتب برصده الدقيق للتعذيب ، يشبه " نجيب الكيلانى " – رحمه الله – الذى اهتم بهذه الناحية ، ولكن بأسلوب فنى ، فى روايات عديدة ، أبرزها " رحلة إلى الله " التى اعتمد فيها على المفارقة والحوار ، وأبرز بشاعة السلوك الإنسانى حين ينحرف عن الطريق السوى ، والهدف القومى ، ليحدث عاهة اجتماعية فى النفوس والقلوب ، تظل قائمة ، ولا تسقط بالتقادم
.
يسمح المؤلف لنفسه ، أن يربط الماضى بالحاضر ، من خلال تعليقات مباشرة وصاخبة تعبر عما يجيش فى نفسه ، ويعانيه فى واقعه ، وهى تعليقات تتوجه فى معظمها إلى هجاء التيار الإسلامى ورموزه وقادة النقابات المهنية ، وخاصة نقابة الأطباء ، وينعى عليها اهتمامها بقضايا

المسلمين ، ولا ريب أن بعض المثقفين ، يتصور أن الرموز الإسلامية أو التنظيمات التى تمثل التيار الإسلامى ، عنوان على الإسلام ومرجعية له ، وهذا التصور لا يعبر عن واقع الإسلام وطبيعته ، ولا يقوم حجة عليه ، بسبب بسيط ، وهو أن مرجعية الإسلام لا تحتاج إلى وساطة توصل إليها ، لأنها متاحة ومبذولة ، أمام الجميع ، هذه المرجعية تتمثل فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وإجماع الأمة ، وهذه المرجعية حجة على المسلمين أيا كانت مناصبهم أو مراكزهم ، ومن هذا المنطلق ، فلا يوجد فى الإسلام " رجل دين " ولكن يوجد " عالم دين " مثله مثل " المهندس " و " الطبيب " و " المعلم " و " الفلاح "و " الصنايعى " . لا قداسة لأحد فى الإسلام إلا لله ، ولا عصمة لمخلوق فى الإسلام إلا للنبى - صلى الله عليه وسلم .

ومن المؤسف أن يقضى العديد من المثقفين عمرهم الطويل فى قراءة صفحات من رأس المال ، ولايبذلون أدنى جهد لمطالعة بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة ، ولو من باب حب الاستطلاع ، وقد اكتشفت أن كثيرين ممن أعرفهم من " أهل اليسار " لا يقيمون علاقة من أى نوع مع المرجعية الإسلامية فى أصولها الصحيحة ، بل يكتفون برصد سلوك هذا الرمز الأسلامى أو تلك الجماعة الإسلامية ، ونسوا أن هؤلاء بشر يصيبون ويخطئون ، وأن واحدا منهم لا يملك حصانة أمام الله سبحانه ، وأنه سيحاسب على كل مافعل ، دون أن يشفع له منصب أو جاه أو انتماء :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [الزلزلة : ٧-٨}

ولعل هؤلاء الأصدقاء ، لو فعلوا مافعله " جارودى " مثلا ، لكانت نظرتهم إلى الإسلام ومعطياته أكثر إنصافا وعدلا ، أما الاكتفاء بترديد قصائد الهجاء للجماعات أو الجمعيات الإسلامية ورموز الإسلام ، بوصفها تمثل الإسلام أو هى الإسلام ، فهذا ظلم فادح ، وخلل عظيم .

إن غضب الكاتب على قادة نقابة الأطباء – وهم من التيار الإسللامى – جعله ينتقد موقفهم من الاهتمام بمذابح المسلمين المسلمين فى البوسنة والهرسك مثلا ، ولا أرى فى ذلك مسوغا للانتقاد ، فمسلمو البوسنة والهرسك بشر ، بصرف النظر عن كونهم أشقاء وإخوة ، ومساعدتهم حق وواجب على كل إنسان صاحب ضمير ، مثلما هو حق وواجب على كل إنسان أن يساعد الفلسطينيين ، وخاصة إذا كان طبيبا يستطيع أن يعالج الجرحى وينقذ المصابين .

بيد أن مؤلف " الفراشة واللهب " حين يتخلى عن نظرته المبرمجة ، وينطلق على سجيته وفطرته فى التعبير عن المشاعر الإنسانية والفطرة

البشرية يحقق قفزة فنية ممتعة ، فعلى سبيل المثال يقدم لنا صورة جميلة عن العلاقة التى ربطت بين شاهندة مقلد وصلاح حسين ، وكفاحهما لإقامة أسرة بسيطة تنعم بالوئام والتضامن ، مع أن العقبات المادية والفوارق الاجتماعية كانت كفيلة بالوقوف ضدهما وضد إتمام زواجهما .
ثم إن الكاتب يرسم لك ملامح شخصية حية ونابضة بالإيمان والأمل ، هى شخصية زوجته " علية هانم عبدالغفار " وهى صورة طيبة للمرأة المصرية التى تهديها فطرتها إلى الثقة فى الله وتقبل قدره بلا تبرم أو سخط ، ثم أنها مثال للتضحية والصبر الجميل ، فقد تزوجت رجلها ، وهى تعلم أنه مطارد ، لا يملك من حطام الدنيا إلا مشاعره الفياضة تجاهها ، وتواجه صرامة الحياة بابتسامة مشرقة ، وكفاح دائب ، حتى يحصل زوجها على شهادته فى الطب ، ويصير طبيبا يعمل ويسافر إلى الخارج لتتحسن الأحوال المعيشية ، وتنجب أبناء وبنات يملأون حياة الزوجين بالبهجة والفرح والأحفاد ، وحين يطالها المرض العضال ، فإنها لاتفقد إيمانها بالله ، ولاتتخلى عن الدعاء ، حتى تلقى وجه ربها راضية مرضية .
لا شك أن رحلة الكاتب مع الحياة ، تثير العديد من الأسئلة ، وقد طرحها هو بالفعل : " هل كان ماطرحته كل الفرق : الليبراليون ، الإخوان المسلمون ، الماركسيون ، الناصريون ، أكثر صعوبة من أمنيات التحقيق والتحقق ؟ هل كان العيب فيما حملناه من أفكار ؟ أم كان العيب فى الإنسان الذى بشر وحمل العبء ؟ أم ... "
بيد أن الإجابة ستظل معلقة ، حتى يصبح الوطن ملكا لجميع أبنائه الذين يستطيعون الحوار والتعامل من خلال احترام الكرامة والعدل والمساواة .

***

روايتان

تظل الرواية بالنسبة للجادين من الكتاب الشبان فضاء حيويا ، يعبرون من خلاله عن رؤاهم الخاصة حول القضايا العامة التى تشغل المجتمع وتؤرق الأمة ، ويتوسلون إلى ذلك بصيغ وإطارات متعددة تسعى إلى توصيل الرؤية بأفضل السبل وأقصر الطرق .

يكتب " عبد الخالق محمد عبد الخالق " رواية " الأساطير فى رحلة الشك واليقين " ١٩٩٩ ، وقد طبعها على نفقته طبعة متواضعة ، لتعالج مشكلة حيوية تدور فى المجتمع الأكاديمى (كلية الآداب) وهى علاقة أستاذ الجامعة بمن حوله من ناحية وبالعلم والفكر من ناحية أخرى .

أما " مجدى محمود جعفر " فيصوغ روايته " أميرة البدو " ليغوص بنا فى عالم يمتزج فيه الرمز بالأسطورة بالواقع ، يحلل من خلاله مأساة الأمة وصراعاتها التى يستفيد منها " الرجل الأبيض " وحده، وتشرب الأمة كأس السم مترعا وقاتلا كما تمثل فى حرب إيرا ن / العراق ، العراق / الكويت .

يبدو عنوان الرواية الأولى تقريريا ، كأنه عنوان بحث علمى ، ولكن الرواية تفيض بروح إنسانية تهفو إلى العلم والمعرفة واليقين من خلال بطلها الدكتور " سلام " الذى نتعرف من سيرته الذاتية والعلمية على أنماط من البشر تتجاذبهم مطامع الدنيا وصراعاتها من أجل المناصب والمكاسب فى الجامعة وخارجها ، كما نتعرف أيضا على نماذج بشرية غاية فى الصدق والإخلاص والرغبة فى خدمة المجتمع والبشرية ولا تعنيهم زخارف الدنيا ، ومتعها الآنية .

بيد أن الرواية إلى جانب ذلك تترسم اتجاها مهما يرصد علاقة الشرق الإسلامى بالعالم الغربى من خلال علاقة أستاذ علم اجتماع مصرى بآخر غربى نظير له ، وبالطبع فإن الرواية تنحاز إلى الشرق الإسلامى وعطائه الروحى ، وإن كانت تلمح إلى أهمية العلاقة بالغرب واستثمار إمكاناته المعرفية ، مع رفض معطياته التى تتعارض مع القيم الإنسانية .

" أميرة البدو " تضع الغرب من خلال صنيعة " الرجل الأبيض " فى صورة االشرير الذى يوقع بين العرب والمسلمين فى صنيعة فارس ، وصنيعة الفتوة ، وصنيعة الشيخ ، وصنيعة بدوية ، إنه يبيع لهم السلاح ، ويستثمر ذهبهم ومعادنهم لحسابه ، ويرقب تصفية بعضهم لبعض ، واستعانتهم به فى شتى الأمور .

إن رواية " أميرة البدو " تطرح قضية الوجود القومى فى عالم من الأطماع والصراعات ، وتربط مسألة تحقيق الأمن بالعلم والمعرفة والاعتماد على النفس والعمل المستمر الجاد ، ومع أن الرواية تثير فى القارئ نوعا من الاحباط والتشاؤم بنهايتها المأسوية ونجاح الرجل الأبيض فى تدمير البناء والحلم ، إلا أنها فى كل الأحوال تلفت الأنظار إلى أسباب المحنة وعوامل الإخفاق رواية .
" الأساطير فى رحلة الشك واليقين " ، مع أنها الرواية الثالث أو الرابعة للمؤلف تعانى من بعض الخلل فى الصياغة ، وخاصة فى اللغة ، فما أكثر الأخطاء النحوية والصرفية ، بل والإملائية ويمكن أن أشير عشوائيا إلى صفحات ٣ ، ٦ ، ٩ ، ٢١، ٢٤ ، ٣٦ ، ...الخ . إن الأدب فى الأساس بناء لغوى ، والاهتمام باللغة عنصر أساسى لا يمكن أن يستغنى عنه الأديب أو يهمله ، لأنه أساس التمايز بين أديب وآخر ، ويبدو أن حصاد مؤلف " الأساطير " اللغوى قليل ، مع أنه يملك رؤية جيدة مفعمة بتصور ناضج وفهم عميق لمعطيات الشرق والغرب الحضارية ، ثم إن بناءه الروائى متماسك إلى حد كبير ، وشخصياته ، وخاصة الدكتور سلام والدكتورة نادية ، من الشخصيات الحية النامية التى يراها القارئ من الخارج والداخل ، ويمكنه أن يرى فيهما نموذجين إنسانيين يجمعان صفات الكمال ، كما ينطويان على بعض القصور أو المعاناة .
استطاع مؤلف " أميرة البدو " وهى روايته الأولى سبقتها مجموعة قصصية ، أن يتجاوز منزلق الصياغة التقريرية ، فقدم أسلوبا عفويا يفيض عذوبة أحيانا ، يسرد به الأحداث التى تفيض بها الرواية ، كما يقدم أحيانا بعض الصيغ التراثية فى سرده وحواراته ، وتبدو اللغة فى كل الأحوال متماسكة وبعيدة عن الحشو والركاكة ، تأمل مثلا هذه الفقرة القصيرة :
" نهيب بالأئمة فى المساجد بأن يحيوا فريضة الجهاد ، ويؤهلوا الناس للذود عن الضيعة المقدسة بالنفس والمال . نحاول أن نسيطر على البدو الذين يعيشون فى هذا الفضاء .. وبالذات تلك المرأة التى ارتبطت بالفتوة فى علاقة غير شرعية وأنجبت منه أولادا .. وارتبطت بفارس أيضا وأنجبت منه هو الآخر أولادا " .. ص ٤٧ .
تذكرنا " أميرة البدو " براوية " رحلة ابن فطومة " لنجيب محفوظ ، واستلهامه للتراث فى صياغتها ، وأيضا تقسيمه للمكان من خلال مجموعة إمارات متخيلة (تقابل الضيعات فى أسرة البدو) ، وإذا كان المكان فى رواية محفوظ يمكن مطابقتة على الواقع الحقيقى بشكل دقيق ، فإن المكان فى رواية " مجدى محمد جعفر " لا يطابق الواقع تماما ، أو لا يمكن تأويله

بصورة دقيقة ، ولعل الكاتب أراد أن يترك القارئ أمام أكثر من تأويل لحساسية الموضوع .. وأيا كان الأمر فإن رسالة الرواية تصل فى نهاية المطاف .
ثمة أهمية واضحة للحوار فى " أميرة البدو " حيث يأتى فى مجمله قصيرا ومركزا ومعبرا عن مستوى الأشخاص ورؤاهم فى لغة شاعرية تستعين بالمثل الشعبى والقياس المنطقى من خلال طرح الأسباب والنتائج أو العلة والمعلول .
ومع أن " أميرة البدو " تعتمد على ضمير الغائب فى سردها ، فإن الوصف الذكى الذى اعتمد الإيجازواللمحات الخاطفة الدالة ، قد أعطى للرواية بعدا حيويا أنقذها من الرتابة وبرودة السرد ، ولا شك أن لبعض الوسائل الفنية والأدوات السردية مثل الحوار الداخلى ، والاسترجاع ، دورا مهما فى تأكيد هذا البعد الحيوى وحضوره .. وإن كنا نتحفظ على بعض التفاصيل خاصة فى وصف علاقة الشيخ أو الفتوة ببدوية ، حيث يمكن الاستغناء عنها ، أو الاكتفاء بإشارة موجزة .

العملية حبرون

أدب الجاسوسية لون من ألوان الأدب الروائى الغربى ، حفل بصور شتى من صور الجاسوسية ودورها فى الصراع بين الدول فى الحروب المباشرة ، والحروب الباردة على السواء ، وقد خلا أدبنا العربى الحديث من هذا الأدب ، باستثناء بعض الأعمال التى أفرجت عنها أجهزة الأمن فى العقدين الأخيرين لتتاح لبعض الكتاب صياغة بعض المسلسلات التلفزية أو الروايات أو القصص التى تشير إلى دور رجالنا فى إحباط بعض المؤامرات ، أو تنفيذ بعض العمليات التى تردع العدو عن متابعة نشاطه الإجرامى ، ولعل خلو الأدب العربى المعاصر من أدب الجاسوسية أو الاستخبارات يرجع إلى حداثة وجود الأجهزة الأمنية الفعالة التى يمتد نشاطها إلى خارج الحدود لأسباب شتى لا مجال للحديث عنها فى هذه المناسبة .

وأهمية هذا الأدب ترتبط بإثراء الوعى المعرفى والثقافى حول دور أجهزة الاستخبارات بصفة عامة فى صناعة الأحداث ، والهيمنة على صناع القرار ، والوصول إلى أعماق العدو ، أو الأطراف المنافسة ، واستجلاء الحقيقة حول خططتهم ومشروعاتهم .

" والعملية حبرون " من روايات الجاسوسية الخطيرة التى تكشف دور جهاز الموساد الصهيوني ؛ فى تجنيد السياسة الأميركية لخدمة أهداف الدولة العبرية فى فلسطين المحتلة ، والسيطرة على المؤسسات التشريعية والتنفيذية فى واشنطن إلى درجة تجنيد رئيس الولايات المتحدة المنتخب ليكون يد اليهود الباطشة ولسانها الناطق .

ومن أجل هذه الغاية تبذل الدولة العبرية ماتستطيع لتوجيه الأمور فى البيت الأبيض لحسابها ومصالحها .

" وحبرون " هو الاسم العبرى لمدينة الخليل ، وقد صار رمزا للعملية التى يقوم بها الموساد لإنجاح المرشح للرئاسة الأميركية فى الانتخابات كى يكون عميلا مباشرا وعلى أعلى المستويات للحكومة اليهودية فى تل أبيب ، بدلا من الاعتماد على مستويات أقل فى الخارجية أو البنتاجون أو الكونجرس .

ومؤلف الرواية اسمه " إيريك جوردان " من رجال المخابرات الأميركية الذين عملوا بها لمدة ثلاثين عاما ، وكان مجال عمله فى الشرق الأوسط ، وهو على دراية بأحداثه ومشكلاته ، وقد استوحى هذه الرواية من مهنته

وعلاقاته بأطراف عديدة فى المنطقة ، فمزج الحقيقة بالخيال ، ليقول أشياء كثيرة ولكن بطريقة غير مباشرة ، يعنينا منها الكثير بالطبع .
لقد أشار إلى هذه الرواية فى العام الماضى " محمد حسنين هيكل " فى مجلة " وجهات نظر " فور صدورها بالإنجليزية ، وعرض لها من حيث المضمون محاولا أن يربطها بقضايا الساعة ، فأعطاها أبعادا عديدة ، وقد قامت ، " دار الهلال " بترجمتها إلى العربية على الفور (ترجمها : شاكر عبدالفتاح) ، وللأسف ، فإن سرعة الترجمة ، خلفت أخطاء عديدة فى الصياغة والنحو والإملاء ماتعودناها من دار الهلال ، ولكن الترجمة قدمت للقراء عالما مثيرا يبدو مجهولا للكثيرين فى عالمنا العربى و الإسلامى ، ويجب أن يدخلوا إلى ساحته ويتعرفوا على ملامحه ، حتى يدركوا كيف يتحرك الأعداء ، وكيف يخططون للمستقبل .
تجرى أحداث الرواية فى عواصم صناعة الأحداث أو المساعدة على صناعتها : القدس ، بروكسل ، واشنطن ، موسكو ، جنيف ، بالمادى مايوركا ، باريس ، تل أبيب ، طنجة ، فى الفترة من أبريل حتى السابع من نوفمبر موعد إعلان نتيجة انتخاب الرئيس الأمريكى فى الولايات المتحدة .
وتقوم الرواية على بناء دائرى ، يبدأ من لحظة النهاية ويرتد إلى البداية فيقدم لنا الأحداث بالتتابع حتى يصل إلى البداية مرة أخرى ، كاشفا عن شخصيات مليئة بالتشوه الداخلى والامتلاء بالشر والأطماع ، وكلها تتنافس بذكائها وقدراتها من المكر والخداع ، والمهارة والحرفة ، كى تحقق أهدافها وغاياتها ، وهزيمة الخصوم والتنكيل بهم .
إن العملاء الذين يقومون بالإغراء والغواية ، والتزوير والقتل ، نتاج بيئات فاسدة ومريضة ، ولديهم استعداد لعمل أى شيء من أجل المال والجنس والمتعة ، لا مكان لديهم للأخلاق أو القيم أو الوطنية أو الإخلاص ، لايعرفون العواطف والمشاعر ، الصديق يقتل صديقه ويصفيه بدم بارد حين يقتضى الأمر تصفيته ، الأنانية سيد الموقف لدى " العاهرة " التى تبيع نفسها من أجل ما تتقاضاه ، وتنتقم لنفسها بمنتهى القسوة ومن أقرب المقربين إليها ، والرئيس القادم " حبرون " لا يتورع عن فعل أى شيء لأداء دوره وتحقيق طموحه ، الشخصيات اليهودية تبذل ما فى استطاعتها لتجنيد العملاء وتوظيف كل الظروف من أجل المصلحة اليهودية فى فلسطين المحتلة ، ولابأس لديهم من الخداع والضحك على العملاء وعدم توفيتهم مستحقاتهم ، إنه عالم من النفوس البشعة الشرسة التى تتصارع من أجل الفوز بمغانم شخصية أو منافع قومية .

تحرص الرواية على التأكيد أن اليهود يضعون العقبات فى سبيل أية تسوية سلمية مع الفلسطينيين من خلال شخصية رئيس الوزراء الصهيونى ، كما تحرص على التأكيد على الفصل بين اليهودية والصهيونية من خلال شخصية المحققة الفيدرالية التى تدين بالولاء لوطنها (أميركا) مع أنها يهودية ، ووالدها الذى يجعل ولاءه للكيان الصهيونى ويتعصب له ، فى حين لا تهمه أميركا ولا ما تمثلة بالنسبة له بوصفها وطنا وجنسية وقومية .
هناك أيضا إبراز للتوافق بين أوربة وأميركا من خلال الشخصيات الاستخبارية التى تتفق على أهداف واحدة ، وهناك كذلك إمكانية لاختراق " الموساد " ذاته عبر شخصيات التجسس الروسية ، وقد آثر المؤلف أن يجعل رئيس وزراء الكيان الصهيونى يوقن بعد إخفاق العملية " حبرون " أن السلام هو الحل لكيانه ، ويجعله فى نهاية المطاف ينذر نفسه لهذه الغاية !!

إنها رواية مثيرة ومفيدة فى كل الأحوال بالنسبة للعرب قبل غيرهم .

***

روائى من كفر بولين

" كفر بولين " قرية الروائى الراحل العظيم " محمد عبد الحليم عبدالله " ، وهى من أعمال كوم حمادة ، بمحافظة البحيرة ، ويبدو انها ستقدم لنا روائيا جديدا آخر ، اسمه " ثروت مكايد " وهو شاب فى مقتبل العمر ، يكافح من أجل الحياة والأدب معا ، وتشغله قضايا كبرى ، ربما كانت أكبر من سنة ، إنها شهوة إصلاح العالم التى تستهوى أصحاب الرسالات والمصلحين الاجتماعيين والقادة العظام ... وهو أمر طيب بلا ريب ، اذا اكتملت الأدوات وتوفرت الوسائل .

أسعدنى أن أطلع على بعض قصصه القصيرة ، فرأيت فيها ملامح موهبة جديدة نامية ، وطالعت روايته الأولى " القضبان " التى طبعها على نفقته فأكبرت فيه إصراره على قول كلمته ، وتحدى صعوبات النشر ، ومواجهةالحياة الأدبية من قلب قريته الرابضة على مشارف صحراء البحيرة .

تتناول رواية " القضبان " قضية كبيرة ، من خلال أزمة شاب ، فقد الرشد ، وانهار أمام تعقيدات الحياة ، وقسوة الواقع ، وزيف العلاقات ، وسيادة النمط المادى وهيمنته على العقول والقلوب جميعا . هذا الشاب " محمد عبدالعزيز القزاز " يعيش الأزمة ويغرق فيها حتى أذنيه ، يبحث عن يقين فيتعثر ، ويترك والديه ينتحبان من أجله ولا يعبأ بهما مع أنه وحيدهما ، ومن الخمارة إلى شقته الخاصة التى يقابل فيها أصدقاءه ، الى الفضاء الرحب يبحث عن الإحساس بالوجود ، ولكن دون جدوى . لم تسعفه القراءات ولا المناقشات مع الزملاء فى حل أزمته ، أو إعادته الى مجرى الحياة الطبيعى الفطرى ، وظل فى حيرة تحدها قضبان الوهم والألم وعدم التوافق..

وكما نرى من واقع " محمد عبدالعزيز القزاز " ، تبدو الحياة لغزا يصعب على الحل ، بالنسبة له ولجيله الضائع ، الذى يتفاوت إحساس أفراده تجاه هذا اللغز ، فالبعض لا يفكر على الإطلاق وينتهب اللذات ، والبعض يهرب من نفسه ، والبعض يعلم أن شيئا لن يتغير وعليه أن يقبل الأمر الواقع (أصدقاؤه : ياسر وسعدون وشريف عطية ، يمثلون هذه التوجيهات) والبعض تعهر وانتهى الأمر (منال) ..

بيد أن بطلنا الذى يشقيه الواقع يخوض التجربة ، حتى ينتهى به المطاف أخيرا إلى توديع الهموم والشكوك ، والسير فى طريق آخر يحقق له الأمن واليقين ...

الوصول إلى اليقين لا يأتى عن طريق حوادث روائية متراكبة ، بقدر مايأتى عن طريق حوارات تبدو ذهنية ، جعلت الرواية فى مواضع كثيرة أقرب إلى المسرحية ، وبالتحديد مايسمى " المسرح الذهنى " الذى اشتهر به " توفيق الحكيم " .. ولعل طبيعة الأزمة التى يمر بها بطل الرواية أو طبيعة تفكيره ، جعلت للحوار هذا الحضور الكثيف ، فالبطل الباحث عن الحقيقة يصطدم بأفكار ونظريات عديدة ومتصارعة ، وكل منها تحاول جذبه أو شده إليها ، وهو إزاءها لايملك قدرة واضحة على الاختيار أو المبادرة ، مما أوقعه فى الحيرة وعذاب الشك والتردد والشلل الفكرى " لا شيء غير الشلل يجتاحنى كإعصار ... والحق أننى لا أستطيع الحركة خطوة واحدة !والعجب أنى لا أعرف الله !! (ص ٥٠) .

إنه – أى البطل – يلخص أزمته بهذه الكلمات ، ومن ثم ، فإن حواره مع أصدقائه خاصة ، والناس عامة ، يستدعى الأزمة ويدور حولها ، حتى يصطدم برجل الشارع الغريب الذى يكسر تردده ، ويزيل حيرته ، ويحول شكه إلى يقين يؤكد على أن " الحياة مع غير الله ضنك واضطراب وذل " (ص ٩٠) .

إن الحوار هو الظاهرة الأكثر بروزا فى السرد الروائى ، وهو حوار شاعرى يصل فى بعض المواضع إلى الذروة من الدقة والصفاء ، ويبتعد عن الترهل والحشو والركة ، بل إنه يذكرنا أحيانا ببعض حوارات " نجيب محفوظ "فى قصصه ورواياته ، بيد أنه مع ذلك لا يسلم من بعض الحوارات التى تبدو فلسفية معقدة ، وتكاد تعلو على مستوى بعض المتحاورين الثقافى والفكرى (تأمل مثلا الحوار فى صفحة ٤٤ وما بعدها)، ومما يحسب لهذه الرواية أنها تستخدم الفصحى بنعومة ، بعيدا عن التقعر أو الاضطراب الذى تشى به المحاولات الروائية الأولى عادة لدى الشباب ، وإن كانت أخطاء النحو والتركيب تفسد أو تقلل من جمال الرواية وجودة سردها ، فهناك مثلا مشكلة واضحة مع الممنوع من الصرف وحروف العطف (انظر ص ٢٤ على سبيل المثال) والفعل المنصوب المنفى بلا ، يقول فى ص ٦٢ (لا يجب أن تحاكمهم) والصواب :يجب ألا تحاكمهم ، والمفعول الذي يجب نصبه(لا أعرف لي اتجاه!) والصواب : لا أعرف لى اتجاها . وأيضا فإنه يستخدم " ما " مع " بد " فيقول " مابد من

أساس للبناء " ص ٥٤ والصواب أو الأفصح استخدام " لا " بدلا من " ما " فنقول " لابد " ... وغير هذا مما يحتاج إلى مراجعه قبل الطبع .
وفى كل الأحوال ، فأن الكاتب يسعى إلى استخدام طرائق سردية لها من الفاعلية والتأثير الروائى مايجعل روايته أكثر حيوية وأبعد عن الرتابة التى فرضها الموضوع الروائى الذهنى ، مثل الحلم الذى بدأ به السرد ، والتضمين بالأشعار ، والتصوير الجزئى فى السياق السردى ، كما نرى فى هذه الصورة التى يصور بها أنف البطل : " ارتعش وجهه ، وبدأ أنفه الطويل كشراع قارب تعبث به الريح ... " (ص ٧)
إن الكاتب الشاب " ثروت مكايد " يحمل بين سطوره بشارة بكاتب من نوع جديد يختلف عن التيارات السائدة التى تؤصل للعبث بكل شئ جميل ، وتستبيح اللغة والقيم ، وتهرب من الواجب الوطنى والمسئولية القومية ، وتحصر ذاتها فى القبح والجسد ، وتروج للانحطاط والانحلال ، وتجاهر بالتبعية وقبول التغريب .. ترى هل يستطيع " ثروت مكايد " أن يواصل مسيرته التى بدأها بداية طيبة ، وينمو مع خطواته التالية ليعيد لنا وأمثاله الثقة فى جيل جديد مغاير ؟ ...
أرجو ..

***

دموع الحب

هذه مجموعة قصصية متميزة ، مع أنها المجموعة الأولى لمؤلفتها الأديبة " كريمة محمود شاهين " . فيها بالطبع سلبيات أى مجموعة أولى ، ولكنها بصفة عامة تبشر بكاتبة جيدة ، تتخذ من الرؤية الإسلامية سبيلا لتقديم فنها إلى الناس كافة .

أول مميزات هذه المجموعة البساطة .. والبساطة هنا هى البعد عن التعقيد والتفلسف والادعاء ... إنها بساطة الرؤية الاسلامية للكون والحياة والانسان ، فهى تتخذ مادتها من الواقع اليومى الذى يعيشه الناس ، وتقيسه على مفاهيمها الإسلامية ، وتسعى أو تجتهد أن تجعل للكون بهجة وللحياة طعما وللإنسان سعادة .

وثانى المميزات فى مجموعة " دموع الحب " تتمثل فى استخدام المفردات والعناصر الأسلامية التى يعايشها المجتمع المسلم فى عباداته وعاداته وقوله وفعله ، مما يخلق جوا اسلاميا متميزا له طابعه الخاص وملامحه الذاتية ، فهناك الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، والاستغفار ، والاستعاذة ، والاحتشام ، وتأدية الفروض ، وصلاة الجمعة ، والتربية الدينية ، والمسجد ، وعموما فإن الشخصيات تتحرك فى إطار اعتقاد بأن الله يرى ويسمع ، مما يربط الحدث عادة بالايمان أو عدم الايمان .

وثالث المميزات قيام الحبكة القصصية على مايمكن أن نسميه عنصر المفاجأة ، والمفاجأة فى قصص " دموع الحب " ليست من النوع المفتعل أو المفروض ، ولكنها غالبا مفاجأة محتملة تفسر لنا طبيعة الأحداث ، وكيفية تطورها ، وميزة هذا العنصر أنه يشوق القارئ لمعرفة نهاية القصة وفهم مغزاها ، وإذا أخذنا القصة التى تحمل عنوان المجموعة مثالا لذلك فإننا نجد أنفسنا إزاء علاقة زوجية ، تغيرت من الحب والمودة ، إلى الغموض والشك ، والوقوف على حافة الانفصال .. لقد تحولت العلاقة من التوازن الطبيعى إلى حالة غير متوازنه ، حيث يحتفظ الزوج بدفءعواطفه أمام زوجة تبدو باردة وحادة وغير متفاعلة مع الأسرة ، ويحاول الزوج والأولاد إخراجها من دائرة الغموض التى تعيشها وتجعلها تنكب على عملها وتصحيح كراسات الطلاب فى البيت دون أن تولى أدنى اهتمام بالأبناء أو تخرج معهم فى زيارات أو رحلات ، ويفسر الزوج الحالة بالاكتئاب ، ويتصور أن اختراعا أو اكتشافا جديدا لأحد العقارات الطبية سوف يحل مشكلة الزوجة .. ولكنه يصدم حين يعلم أن الاكتشاف مازال فى طور التجريب !! ويخيب امله فى حل مشكلته ولكنه يقرر أن يتتبع زوجه إلى حيث تخرج ، ويفاجأ بأنها تركب التاكسى مع أحد الأقارب وتذهب إلى مؤسسة علاجية ، وتحمل معها لفافة كبيرة ، فيدخل وراءهما ،وإذا به يعلم

أن اللفافة هى الكفن الذى سيكفن به شقيقها المدمن حيث قضى نحبة فى المصحة بعد أن أخفق علاجه الطويل ! وعرف الزوج سر اكتئاب زوجه التى لم تذع نبأ الإدمان . والمفاجأة غالبا ما تكون قاسية ومؤلمة وحزينة ، ولا تحقق أمانى الأبطال ، ولكنها فى جانب من جوانبها تعبر عن مدى إيمان المؤمن وصبره على البلاء ومواجهته الاختبار .

ولعل قصة " الأمنية الخضراء " خير مثال على هذا النوع من المفاجأة ، فالأم العجوز التى أنفقت ثلاثين عاما من عمرها فى تربية أبنائها بعد وفاة والدهم ، تنتظر الحصاد ، فتحلم بأمنية بسيطة جدا ، وهى أن يتجمع أولادها الأربعة حولها بعد أن تفرقت بهم السبل هنا وهناك ، وفى الليلة التى انتظرت تجمعهم إذا بهم يتاخرون فى الوصول ، ويساق أحد أبنائها من المسجد إلى السجن معتقلا بسبب تدينه ، فتظل فى مكانها تنتظر بعد أن جهزته بكل مايليق وكل ماتستطيع ، وطال انتظارها .. وكانت المفاجأة أنها أفضت إلى بارئها قبل أن يصل واحد منهم !.

رابع مميزات المجموعة أن شخوصها من أبناء المجتمع البسطاء فى الأغلب الأعم ، يواجهون الحياة ، بروح الصبر والكفاح والرضا بالقضاء والقدر ، ويبذلون فى سبيل العيش مايستطيعون من وقت وجهد ومال ، ويثقون فى عدل الله إذا حاق بهم ظلم ، أو مسهم بلاء .. هناك التاجر المثقف ، والمرأة المثقفة ، والأم الفلاحة ، والأبناء العاملون داخل الوطن وخارجه ، وربة المنزل ، واالمدرس الكادح ، والعجوز الفقير ، والشيخ المشلول ... ولا يعنى هذا ان الشخوص القصصية فى المجموعة تمثل النوع الايجابى ، فهناك شخوص تمثل الحالة السلبية بسبب انحرافها أو عقولها أو عنصريتها وتعصبها ضد أبناء الوطن (المدرسة الاجنبية أولجا)

إن النماذج التى تقدمها قصص المجموعة شائعة فى المجتمع ، مما يعنى أن المجموعة تحتشد للتعبير عن هموم عامة ، لا تخص أفرادا بذواتهم ، بقدر ما تخص الشرائح العريضة التى تمثلها وتشير اليها .

خامس مميزات المجموعة ، ويرتبط بالميزة السابقة ، يتمثل فى القضايا موضوع القصص ، إنها قضايا متنوعة ، منها مايرتبط باللحظة الآنية ، ومنها مايمثل حالة إنسانية يمكن أن تجرى فى أى زمان ومكان ، والأخيرة تبدو أكثر إقناعا وإمتاعا ، ولحسن الحظ ، فإن معظم القصص تعبر عنها .. فإذا كانت قضايا مثل الإدمان واحتلال العراق للكويت ومشكلة الإسكان تمثل النوع الأول ، فإن قضايا أخرى مثل علاقة الأم بالأبناء ، والرجل الصالح فى القرية ، ومعاناة الأطفال بسبب الطلاق ، والعلاقة بين المحتل وأبناء الوطن ، تعبر عن النوع الثانى ، الذى يمكن أن نطالعه الآن وغدا ،

فى بلادنا وبلاد أخرى ، لأنه يحمل فى طياته عنصر الاستمرار والبقاء ، وهو احتضانه لفكرة إنسانية عميقة ، ترتبط بالإنسان ومشاعره وعواطفه .
يبقى بعد ذلك أن نشير إلى أن أسلوب المجموعة يحمل طابعا سهلا مباشرا ، وإن كانت التركيبات والأبنية اللغوية تحتاج إلى قدر من التدريب والممارسة لتستقيم مع صحيح اللغة ، وتبتعد عن الأخطاء الشائعة ، فضلا عن الأخطاء النحوية التى آمل أن تصحح قبل الطبع .. وأتمنى على الكاتبة مستقبلا أن تقتصد فى سردها فلا تتدخل بالشرح وهناك ميزة تتعلق بالأسلوب وتتمثل فى قدرة الكاتبة على استخدام المونولوج (الحوار الذاتى) ، ومهمته فى قصص المجموعة أساسية إذ يكشف فى الغالب تاريخ الشخوص ، وتفسير الاحداث ، وأيضا يقدم لنا أمانى الأبطال ورغباتهم .
وبعد : فمجموعة " دموع الحب " تنبض بالصدق والإخلاص لفن القصة ، وأتصور أنها خطوة من خطوات الكاتبة على طريق الكتابة الأدبية الجادة والهادفة ، ثم أنها تعبر بصورة واضحة عن رؤية إسلامية ناضجة للواقع والحياة والكون .. نتمنى لها التوفيق والسداد .

***

رواية وديوان

يوالى شبابنا الجاد إصداراته الأدبية ، التى تحمل همومهم وهموم الأمة ، وتسعى لمعالجة الواقع ، وتهيئته ليكون واقعا أفضل ، تقل فيه الآلام والعثرات ، كما يجتهد الشباب الجاد فى صياغة هذه الإصدارات لتكون أكثر تأثيرا فى الجمهور أو القراء ، كل حسب إمكاناته وقدراته ، وهو بلا شك سينمى هذه القدرات وتلك الإمكانات كلما وجد من يأخذ بيدهم ويقدمهم إلى الناس ويرشّد مسيرتهم الأدبية والثقافية ، واليوم نقرأرواية وديوانا

لاثنين من الشباب الجاد هما : هانى قطب الرفاعى ، فى روايته " يوميات – عروبة ٩٠ " ، وياسر أنور فى ديوانه " أربعة مواسم للخريف " .
وتعالج رواية " يوميات – عروبة ٩٠ " قصة احتلال العراق للكويت ، وقيام الجيش المصرى بالمشاركة مع آخرين فى تحريرها ، ولاتتعرض الرواية للحدث المباشر ، بقدر ماترصد حركة الإنسان المصرى الداخلية ، مع نفسة وأسرته والآخرين من حوله ، وتتأمل العلاقة بين البشر هنا وهناك ، وكيف صار الإنسان العربى أكثر جرأة على أخيه وأقل تسامحا ، فى الوقت الذى يبدو فيه مذعورا أمام عدوه الحقيقى ، لدرجة أن يسلم له بكل شيء دون عناء .
تدور أحداث الرواية فى معسكرات الجيش المصرى ، وتقدم لنا الحياة العسكرية التى يعيشها الشباب المجند من الداخل ، حيث يذهب إلى المعسكر ، وهو يحمل على ظهره همومه الشخصية وأحلامه فى المستقبل ، ويضيف إليها متاعب الأسرة مثلا : مشكلات الأشقاء ، ومرض الأم ، وغدر الحبيبة ، ومتاعب الأصدقاء ، وحين يصل يجد رفاقة الآخرين فى الحال نفسها يحملون هموما موازية ، وكل له عالم من القضايا يسبح فيه بخياله ووجدانه ، ويجعله موزعا بين حدث راهن يرتبط به مباشرة وهو العمل العسكرى فى أى مكان ، ومسئوليات أخرى بعيدة فى المنزل أو مكان العمل والإقامة فى المدينة والقرية ، وهذا حال بطل روايتنا " فريد " الطبيب الشاب الذى دخل سلاح الخدمات الطبية مرافقا لكتيبة مظلات تستعد للسفر إلى الخليج دفاعا عنه وتحريرا للكويت المحتلة .
وهو شخصية يجيد الكاتب رسمها من الداخل والخارج ، مستعينا بالوصف والحوار والمونولوج (الحوار الداخلى) ، لابراز حالة من التوازى بين الواقع الخارجى على مستوى الوطن أو الأمة ، والواقع االداخلى على مستوى الشخصية والأسرة . إن الطبيب الشاب يبدو فى سياق السرد العفوى أو التلقائى واعيا بما يجرى من حوله ، ويفسره تفسيرا أقرب إلى الدقة ، وفى الوقت ذاته يكشف لنا عن مكان جديد ، قل أن نجده فى الرواية المعاصرة بصورة عامة ، وخاصة بعد أن خفت صوت من كتبوا عن حرب رمضان فى الأدب الروائى ..
وفضلا عن ذلك ، فإنه يقدم لنا مكانا لايعرف عنه معظم المصريين الكثير ، مثل وادى النطرون واستصلاحه ، وقيام مجتمع جديد حوله ، ودور رهبان الدير الواقع هناك فى الزراعة واستقبالهم للزائرين .
ولغة الرواية تبدو سهلة ، وبدا من شخصية البطل أنه يقاطع الكتب التراثية مثل كتاب " ابن عربى " وتأثره ببعض الأبيات ، ممايعنى أن الكاتب – مع

أنه طبيب وغير متخصص فى اللغة – لديه استعداد لصقل عبارته ، وحسم الموقف بين الفصحى والعامية ، حيث يقيم حواره على معجم مشترك بينهما ، وأظن أن اختياره للفصحى سردا وحوارا سيكون هو الأرجح والأبقى ، ولعل فوزه ببعض الجوائز فى الرواية والقصة القصيرة يشجعه على هذا الاختيار .

وإذا كان كاتب رواية " يوميات – عروبة ٩٠ " طبيبا ، فإن مؤلف ديوان " أربعة مواسم للخريف " مهندس ، ولغته تبدو ناضجة أكثر من لغة بعض المتخصصين ، ولاريب أن حب اللغة وعشق أدبها ، كفيلان باستيعابها وهضمها والفوز بالمشاركة فى الدخول إلى ساحتها والإبداع بها .

يقدم " ياسر أنور " فى مجموعته قصائد جيدة تقوم على وعى بخصائص الشعر الجميل لغة وموسيقى ، وبناء وتركيبا ، صحيح أن الشاعر فيما يبدو متأثر بمدرسة المجددين الرومانتيك فى شعرنا الحديث ، وينزع إلى التعبير عن ذاته وشجونة الخاصة ، ولكنه فى كل الأحوال يسعى إلى اقتناص عالم البراءة والجمال والطبيعة من داخل العالم الواقعى المتوحش الذى يهدد الإنسان والإنسانية معا .

قصائد " ياسر أنور " غنائية ، ولكنها قد تجنح إلى عالم القص فتحكى تجارب ذاتية تبرز قيمة هنا وقيمة هناك ، ولكنه يقودها فى إطار سرد يقوم على التشخيص والتجسيم ، وسيلته فى ذلك الاستعارة بالدرجة الأولى ، يليها التشبيه ومن خلال تأملاته التى تربط الخيال بالواقع يقبض على لحظة من لحظات الواقع اليومى فيحولها إلى بناء شعرى جميل ، مع أنها تبدو وللوهلة الأولى بعيدة عن الشعر والجمال جميعا ، ولنتأمل مثلا قصيدته القصيرة " القطار " (أربعة أبيات) يصف فيها التكرار أو الرتابة التى تحكم سير القطار يوميا ، وانتظاره على الرصيف ، ودخول الناس إليه أو نزولهم منه ، والكراسى التى تصطف فى المحطة ويجلس عليها المسافرون :

ويمضى قطار ويأتى قطار	وفوق الرصيف رصيف انتظار
عليه صفوف من المقعدين	وألواح صمت عليها غبار
محطاتهم هى محض ضلال	فيوما يمين ويوما يسار
وما من وصول فلا سائق	سوى قطعة " بالريموت " تدار

والأهم من ذلك أن الشاعر يربط بين رتابة حركة القطار اليومية وفريق من الناس يتحولون يمينا أو يسارا وفقا لأهوائهم أو تبعا لمن يحركونهم " بالريموت " عن بعد ، ولك أن تحمد للشاعر كيف وظف كلمة " بالريموت " الأجنبية الوافدة فى السياق الشعرى لتعطى دلالة عميقة لعبيد أهوائهم

ومصالحهم ، ومن فقدوا استقلالهم وذاتيتهم . ولعل هذا مايجعل الشاعر يفقد الأمل فى المدارات القائمة ويرتجيها فى الكوكب الدرى بعد اغتراب الخطا وأمواج المعصية :

كل المدارات أدمتنى أظافرها   توحش الوجه من كوكب عطفا
أنت الوحيد الذى يطوى ستائره   ويفتح الباب بساما لمن وقفا
يا كوكب الدرجاء القلب معتذرا   دعته ريح الصبايا بالاسم فانعطفا

..
***

محروس يصل القمر !

هذا كاتب واعد فى المسرح ، قدمته عندما كتب أول مسرحية ، واطلعت عليها مخطوطة ، رأيت فيها بذرة وعى فنى وفكرى تتجه إلى النضج والإثمار ، ثم جاءتنى مسرحيته المطبوعة ، وألحق بها دراسة مستفيضة لأستاذ جامعى . قرأت المسرحية فازددت يقينا أن الشاب " على محمد الغريب " سيحقق إنجازا كبيرا فى مجال الكتابة للمسرح ، وقد يحقق نموذجا معاصرا ، للرائد الراحل " على أحمد باكثير " فى اتجاهه الفكرى وأسلوبه الأدبى إذا استمر فى اجتهاده ودأبه .

تقع مسرحية " محروس طالع القمر " فى أربعة فصول ، تكاد تكون متقاربة فى الحجم ، وتتناول الصراع الأزلي بين الخير والشر ، الحق والباطل ، العدل والظلم ، المعروف والمنكر ، من خلال واقع عصرى ، ازدهر فيه الشر ومرادفاته ، وانهزم فيه الخير وجنوده ، لأن منطق القوة والأنانية والنفعية والطغيان هو الذى يسود على أكثر من مستوى ، وأكثر من وجه فى واقعنا الراهن .
يواجه محروس الكهل الطيب حالة من الفساد المستشرى فى قريته ، يقودها " غازى المنياوى " وأخوته ، ولأن محروس الطيب لايملك غير إيمانه وأخلاقه ، فإن غازى يستأسد فى إجرامه ، ويطلب منه أن يزوجه ابنته " أمل " المخطوبة للشاب " سيد " ، وهو من نوعية محروس فى حرصه على الإيمان والأخلاق ، وتقف زوجة محروس وتدعى " وطنية " ضد منهج زوجها الحريص على قيمه ؛ اعتقادا منها أنها لاتسمن ولاتغنى من جوع ، وتتحمس لزواج ابنتها " أمل " المخطوبة لسيد من " غازى " الذى يملك المال والقوة والنفوذ ، وكى يتخلص الأخير من مقاومة محروس وسيد ، فإنه يحرق جرن القرية ويتهمهما مع آخرين باقتراف الجريمة ويضيف إليها تهمة أخرى هى إشتراكهم فى تنظيم إرهابى !.
ويمرون جميعا بتجربة قاسية ، يخرج بعدها محروس مهزوما محطما ، وفى غمرة إرهاقه يحلم بالصعود إلى القمر ، وهناك يقابل ملكين يعيدانه إلى الأرض ليؤدى دوره المنوط به ، فى إصلاحها ومساعدة أهلها وفقا للأمانة التى حملها الإنسان ، ويحضانه على عدم الهروب من واجبه مهما كانت الظروف معاكسة .
ورؤية الكاتب فى مسرحيتة رؤية متفائلة تنتصر للخير وتنحاز إليه مهما بلغت ضراوة الشر ، ويتوسل إلى ذلك بشخصيات بسيطه فى الواقع الإنسانى ، ولكنها كبيره بعقيدتها وإصرارها ، وهى بالطبع ليست شخصية " السوبر مان " ولكنها شخصيات إنسانية تحمل إلى جانب القوة عناصر الضعف والقابلية للانهزام ، بيد أنها لا تستسلم ، بل تقاوم ، وتشحذ عزيمتها ، وتواصل رحلة البحث عن العدل والخير والحق والحرية ..
ومن النقاط الجيدة ، استلهام الكاتب لشخصية الصحابى الجليل " واقد بن عبدالله " الذى وقع من على ظهر جمله وهو يؤدى مناسك الحج ، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بدفنه وقال إنه يبعث على هيئته . " واقد " يحضر إلى المسرحية حين يرى الأخير أن الطائفين حول الكعبة يرتدون ملابس حمراء مصبوغه بالدم الذى سفكوه والآثام التى ارتكبوها ضد بعضهم ، وعندما يقابله محروس ويسأله عن الناس والزمان والأحوال

يجرى بينهما حوار دال وعميق ومؤثر ، يختمه " واقد " بتوضيح الطريق الذى يجب أن يسلكه محروس ومن على شاكلته وهو " الفرار إلى الله "؛ حيث يتم تجاوز الهزائم والإحباطات .

ويسعى الكاتب إلى تفصيح اللهجة العامية لتكون لغة المسرحية أقرب إلى القارئ العادى ، بل إلى المشاهد البسيط ، وهى تجربة فيها اجتهاد يشكر عليه ، ولكنها فى كثير من المواضع تصنع لبسا يهبط بها إلى مستوى العامية ولا يرتفع إلى مستوى الفصحى ، وإن كانت بعض المواضع ترقى فيها اللغة إلى مستوى عال ، يكاد يكون فوق مستوى العامة .

لقد أخفقت تجربة " توفيق الحكيم " التى حاول تنفيذها فى بعض مسرحياته من خلال مايسمى اللغة الثالثة أو أطلق عليه حينئذ " الفصعمية " ، ولو لجأ الكاتب إلى الفصحى السهلة – كما فعل باكثير رحمه الله – لكان ذلك أفضل وأكثر جدوى ، ولعلنا لو قرأنا معا المقطع التالى الذى يفتتح به الكاتب الفصل الرابع من المسرحية لو وجدنا بديلا أفضل لبعض الجمل والعبارات .

وطنية : (تدخل) هذا دأبك من يوم أن قبضوا على أبيك ، لاتتركين فراشك إلا لتسقى الصبار ، ثم تعودين إليه!

أمل : (فى صوت متعب واني) لو تركناه لمات .

وطنية : فليمت ، لا حاجة لنا به .

أمل : لو مت أنا الأخرى .

وطنية : بعد الشر عنك ياحبيبتى .

أمل : كلما أسقيته فانتعش زاد أملى فى عودة أبى وسيد .

وطنية : عودة أبيك نعم ، أما عودة الذى مايتسمى فلا .. إنه سبب البلاوى التى نعيشها أنا وأنت أبوك ..الخ .

لا شك أن استخدام " الصبار " فى الحوار يعطى دلالة موازية لعواطف الصبر والتحمل وانتظار الغائبين ، وهو استخدام موفق بالتأكيد ، ولكن لفظة " دأبك " تبدو أكبر من مستوى المتلقى العادى ، ولو وضع مكانها " هذه عادتك " لأدت الغرض وحققت السهولة التى يريدها الكاتب ، أما كلمة (واني) التى يصف بها صوت أمل فى السطر الثالث فصحتها " وان " ، وأيضا الفعل " أسقيت " فى كلام أمل الأخير يتعدى بنفسه دون الهمزة . وعبارة " أما عودة الذى ما يتسمى فلا ... " فى كلام وطنية الأخير فكان يمكن تبسيطه وتفصيحه هكذا " أما عودة من لا يسمى فلا ... "

لا شك أن تجربة " على محمد الغريب " المسرحية ستتطور دائما إلى الأفضل ، وتحقق أملنا بإذن الله فى كاتب مسرحى ، جديد وجاد ، يواصل مسيرة الرواد ، وإن لم يلتفت إليه أحد من المخرجين حتى الآن .

***

سوق العصر

محمد جلال عبد القوى ، هو نفسه محمد عبدالقوى الغلبان ، الطالب الفقير مثلى بدار المعلمين بدسوق . كان يسبقنى بسنة ، وكنت معه نتبادل تقديم المادة الإذاعية فى طابور الصباح ، تخرج قبلى بعام وضمنا بعدئذ الجيش عقب هزيمة ١٩٦٧ ، ومن يومها لم ألتق به إلا على شاشة التلفزيون ، يقدم

دراما ذات طابع محلى يحمل بصمة البيئة ، شمال الدلتا ومدنها وقراها وعاداتها وتقاليدها ، فضلا عن روح متميزة تحتفى بالقيمة وتنحاز للفضيلة ، وتؤمن بالجهاد ، وتقدس العمل ، وتنتصر للأسرة ، وترفض الانقطاع عن الجذور الخضراء ، وتحارب الظواهر العشوائية والسلوكيات الخبيثة .. لذا حظيت مسلسلات الزميل القديم باهتمام الجمهور ومتابعتها ، مما يعنى ترسيخ مكانته فى النفوس والقلوب ، ولولا إخلاصه فى أعماله ماحصل على هذا النجاح .

لقد كانت مسلسلاته مثل : الرجل والحصان ، والمال والبنون ، وحياة الجوهرى ، معالم بارزة فى تاريخ الدراما المصرية ، وأضافت إليها مسلسلة " سوق العصر " بعدا جديدا ، حين مزجت بين الحاضر والماضى ، والواقع ، والرمز ، وقدمت موضوعا حيويا يعالج الاضطراب الذى يصيب حياة المصريين ، نتيجة اختلاف المعايير وانقلاب الموازين ، وسيادة الأثرة والأنانية ، واختفاء روح المودة والرحمة ، ولم يكن اختيار عائلة " المغازى " ومهنة " سن السكاكين والسيوف " وفضاء " سوق العصر " اختيارا عشوائيا يملأ وقت المسلسلة بالأحداث والأشخاص والمواقف ، ولكنه كان اختيارا دقيقا له دلالاته المتعددة والمتشعبة ، وما " المغازية " إلا ذلك الكيان الذى فرض نفسه ذات يوم بالفداء والتضحية ليحمى الأمة والعقيدة والاستقلال ، وما الوهن الذى أصابه إلا نتيجة الترهل والتشرذم والوجود المغشوش الذى يسوده الظلم والهشاشة والانحراف ، وهو ماجعل من مهنة سن السكاكين أو سن السيوف ضرورة لاستعادة الوجود الحقيقى النظيف الذى ينهض على العدل والتعاون والمودة والصدق .

قد يكون " سوق العصر " مكانا تجرى فيه الأحداث وتتحرك على صفحته الشخوص والأبطال ، ولكنه هنا يومئ إلى دلالة أوسع تحتضن مراحل فترة زمنية ، أو سمات زمان معين ، وملامح عصر بأكمله .. وفى كل الأحوال ، فإن مسلسلة " سوق العصر " تقدم من خلال أسرة " المغازية " صورة لمرحلة مهمة أثرت فى حياة المصريين تأثيرا كبيرا وخطيرا ، يعيشونه حتى اليوم بحثا عن حرية ، ورغبة فى نهضة ، وحلما بتقدم . لقد تشرذمت أسرة المغازى ، واتجه أفرادها وجهات مختلفة ، ومع أنهم كانوا من أغنى الأغنياء ، فإن حياتهم بدت هشة ورخوة وبلا طعم ، وخاصة بعد أن رحل الشقيق الأكبر " عتمان " ، وانشغل الشقيق الأصغر " برهامى " بالوجاهة ، واهتم بالبحث عن المتعة ، وعاش لنفسه وحدها ، ولم يفكر فيما حوله ، وترك أبناءه يقلدونه ، ونسى أولاد شقيقه الذين تمزقوا بين مطرقة الحياة ،

وهموم الواقع .. هؤلاء الأولاد الخمسة ، لم يستشعروا من عمهم أى اهتمام ، بل كان سيفا مصلتا على رقاب الضعفاء منهم ، بل إنه غمطهم حقوقهم وحرمهم ميراثهم ... ومع ذلك فإن الأولاد الخمسة ، مع ما يتعرضون له من محن وإغراءات يتجاوزون ظروفهم ، وعن طريق شقيقهم الأكبر " منصور "يستعيدون زمام المبادرة ، ويكتشفون أساس البلاء ، ويتلاقون على التماسك والتعاون فى وجه الشر الذى يمثله " لص الثورة " حلمى عسكر ، وهو شخصية داهية يملك إلى طاقة الذكاء مخزونا هائلا من التخطيط الشرير المحكم الذى يتيح له التنكيل بخصومه وقهرهم وهو يرتدى قفازات حريرية ناعمة ، يلف بها كلماته وأعماله ولقاءاته .. بيد أن " منصور المغازى " الذى يمثل الحلم والأمل ، يتزود بذخيرة من إيمان الرجل الصالح " عم جاب الله " ؛ وهو صنو " عتمان المغازى " وصديقه ، وذاكرة الأجيال السابقة ، ورمزها فى قدرتها على الفعل وتحديها للعقبات والصعاب ، يدير الكاتب صراع الخير والشر بين جبهتين غير متكافئتين ، جبهة عزلاء مفككة على رأسها " منصور المغازى " ، وجبهة قوية مدعومة بالسلطان والقانون الذى طوعته لإرادتها ، ولكن الجبهة الأولى تنتصر ، وتهزم الثانية بالصبر والكفاح والتماسك ، ويمثل مشهد حلمى عسكر ، رمز الجبهة الأخرى ، وهو فى السجن أروع المشاهد لرجل ضل الطريق ، وفقد الرشد ، وظلم كثيرا من عباد الله لتحقيق مطامعه وفرض تسلطه والانتقام ممن وقفوا إلى جانبه وجانب أبيه الذى كان يعمل " نجار باب وشباك " !

ومع أن الحلقات حفلت بشخصيات ضعيفة إنسانيا أو مشوهة خلقيا ، إلا أنها ضمت العديد من الشخصيات الناضجة والشخصيات المتحولة أى التى تتحول من وضع سلبى إلى وضع إيجابى ، لأنها فى داخلها تستشعر ميلا الى الخير والسلوك الطيب ، ويحسب للمؤلف أنه أنطق بعض الشخصيات بآيات من القرآن الكريم مصدر عزنا وفخارنا ، ودستور مستقبلنا الطيب العظيم ، وقد رأينا شخصيات تهتم بالصلاة والدعاء ، وتحرص على صلاة الفجر ، وإن كان التلفزيون المصرى لم يعترف حتى الآن أن ٩٠ % من نساء مصر محجبات وأن القلة من اللاتى يضعن الأحمر والأخضر ويلبسن الاسترتش لا تمثل بنت مصر الحقيقية .

طالت الحلقات حتى وصلت إلى الأربعين ، مما أوقع بعض الحشو والمط ، وافقد بعض الحلقات التأثير الحى ، فإنعددا من الحلقات (قبل الاخيرة) أخذت طابعا مسرحيا أكثر منه تلفزيونيا ، وخاصة الحلقة التى شهدت حوار

الأشقاء الخمسة فى منزل المغازية ، ومعهم ابن العم عطية ، الذى تراجع عن موقفه المستسلم لحلمى عسكر ...
ثم إن " الكتب الشيوعية " التى أعدها هذا الاخير لتكون دليل إدانة السيد المغازى ينتمى معظمها الى العقدين الأخيرين ، أى إنها طبعت بعد فترة سوق العصر التى تنتهى غالبا فى أوائل الستينات ، ولا أدرى من المسئول عن ذلك .. هل هو المخرج أم المؤلف ؟
تحية لزميلى القديم محمد عبدالقوى الغلبان ومسلسله " سوق العصر " .

<u>ثالثا : رؤى :</u>

اليهودى فى الرواية المصرية

يمثل اليهودى بصفة عامة حالة من التساؤل والقلق على أكثر من مستوى ، داخل المنطقة العربية الإسلامية ، وعلى صعيد العالم بأسره ، وخاصة فى الوقت الراهن الذى يتصاعد فيه الصراع بين العرب والكيان الاستعمارى في فلسطين المحتلة ؛ الذى يعد نفسه ممثلا ليهود العالم وموئلا لهم . وقد انعكس هذا الصراع بصورة وأخرى على الآداب والفنون ، وكانت الرواية الجنس الأدبى الذى شهد فصولا مهمة تصور سلوك اليهودى وعلاقته بالآخر ، ويمكن القول إن تصوير هذا السلوك وتلك العلاقة لم يقتصر على الرواية العربية وحدها ، ولكنه امتد إلى أرجاء العالم حيث قام بهذه المهمة روائيون ومسرحيون وكتاب من أمثال شكسبير وديستويفسكى وتشارلز ديكنز وغيرهم .
وكانت الصورة عند هؤلاء قاتمة للغاية فشايلوك المرابى فى " تاجر البندقية " لشكسبير وفيجى المجرم فى " أوليفر تويست " لديكنز ، وجيد الشيطان فى " يوميات كاتب " لديستويفسكى ، يمثلون صورة قبيحة للسلوك الإنسانى ، ويعبرون عن قسوة القلب والفظاظة والخسة ، وقد وصل الأمر ببعض مشاهير الأدباء فى العالم إلى وصفهم اليهود عامة بصفات كريهة وقاسية . فالفيلسوف الفرنسى " بوسويه " يخاطبهم قائلا " يا أيها الشعب الملعون . هذا الدم سيتعقبكم إلى آخر وليد لكم " . ويقول فيكتو هوجو عن يهودى تنصر على يد البابا ثم عهدوا إليه بمرافقة الدوقة " دوبيرى " لحمايتها فى السفر فباعها بخمسة آلاف فرنك : " الشرف والإيمان والقسم " ذلك ماباعه اليهودى دون ألم ! وقد نظم شاعر يدعى " سيسا " قطعة شاعت فى العصور الوسطى تقول عنهم : " جنس محتقر . كريه الرائحة . وقح . ناشر أمراض . بلا شرف . مهمل بغيض . خسيس قذر . بخيل . عنيد

. ملعون . مشاكس ! لا تقى فيه . جحود . جشع . غير كريم . شديد العداوة " .
وقد اهتم الأدباء عندنا بشخصية اليهودى ، ولعل أبرزهم : على أحمد باكثير ، ومن أعماله : شايلوك الجديد ، شعب الله المختار ، مأساة أوديب ، التوراة الضائعة ، إله إسرائيل ، راشيل والثلاثة الكبار ، وأيضا هناك فتحى غانم وله رواية جيدة : " أحمد وداود " ، كذلك إحسان عبد القدوس فى العديد من رواياته وقصصه ..
أما نجيب الكيلانى فقد خصص مجموعة من رواياته لتناول شخصية اليهودى فى مصر وفلسطين وسورية ومن أبرزها روايات : النداء الخالد ، دم لفطير صهيون ، أرض الأنبياء ، عمر يظهر فى القدس .
وقد خصص الباحث الدكتور كمال سعد محمد خليفة ، بحثا جيدا ،صدر مؤخرا ، يتناول فيه رواية " النداء الخالد " لنجيب الكيلانى ، ويبرز من خلال بحثه صورة اليهودى فى الرواية المصرية ، وقد قسم الباحث دراسته النقدية إلى قسمين الأول يشمل الدراسة النظرية حول اليهودى فى الأدب والفكر العالميين ، واليهودى فى الثقافة الإسلامية . أما القسم الثانى فيعنى بالدراسة التحليلية النقدية على أربع مراحل ، الأولى ويسميها البداية ، والثانية : الاستفحال ، والثالث : المواجهة ، والرابعة : الانهيار ، وينهى بحثه بخاتمة تلخص أهم النتائج .
فى تحليله النقدى يكشف الباحث شخصية اليهودى اليونانى " ينى " الذى يهبط إحدى قرى زفتى يبيع الإبر والدبابيس و الأمشاط ، وما شاكلها ، وشيئا فشيئا تصبح له خمارة تتحول إلى متجر كبير يضم البقالة والحبوب والأخشاب وغيرها ، ويصادق الكبار وعلى رأسهم العمدة ومأمور المركز والضباط الإنجليز ، ويقدم الروائى نجيب الكيلانى شخصية اليهودى " ينى " من خلال الوصف ، الذى يوفر معلومات عديدة عن الخواجة " ينى " .
وعن طريق الخمر يستقطب " ينى " ملاك الأرض ، الذين يدمنون الشراب ، ويضطرون إلى الاقتراض منه نظير ربح مركب ، وتكون نتيجة الاقتراض بيع الأرض إلى " ينى " الذي صار يملك كل شيء فى القرية تقريبا ، ولكن الشيخ عنبة " عالم الدين " – وينضم إليه العمدة فيما بعد – يقود الفلاحين إلى مواجهة مع الخواجة اليهودى الذى استفحل أمره ، خاصة بعد أن استعان بأحد الأشقياء لتصفية خصومه من قادة المواجهة ، لقد أثقلت نتائج الحرب العالمية الأولى كاهل الفلاحين بنتائجها فعاشوا البؤس والكساد والأحزان ، وهو ما استغله " ينى " استغلالا جيدا .. ولكن المواجهة تثمر فى النهاية عن فراره إلى الإسكندرية حاملا معه أمواله الضخمة ليستثمرها

فـى مكـان أكثـر رحابـة وأمنـا ، خاصـة بعد أن وطـد الإنجليـز وجـودهم فـى مصر ، وفرضوا حمايتهم على الأقليات ، تاركا الأرض لوكيل لـه مـن أبنـاء القرية يشبهه فى أخلاقه وسلوكه .

من نتائج التحليل النقدى تبدو شخصية اليهودى فـى الروايـة ميتـة الضـمير تسعى إلى المال بكل وسيلة ، لا تتورع عن القتل إذا لـزم الأمـر ، والتحـالف مع القتلة المحترفين ، ومن خلال الوصف والحوار والسرد تكتمل عناصـر الصورة لشخصية غادرة تبدأ بالمسكنة والتواضـع ، ثـم لا تلبـث أن تستأسد بعد أن تتمكن ، وتضـرب عـرض الحـائط بـالقيم والأخـلاق ، وتشـهد الروايـة لهذه الشخصية بالذكاء والدقة والعمل المنظم ، وعدم الثقة فى الغير إلا بقدر قدرته على تحقيـق مصـالحها وأهدافها .. ثـم أنـها لاتعبـأ بمـا يسـمى الصـداقة والجيرة وأفضال الغير .

كما يكشف التحليل النقدى عن طبائع الشخصيات الريفية وسذاجتها إلـى حـد الغفلة والعبط فى مواجهة الشخصية اليهودية التـى تحسـب لكـل خطـوة وكـل كلمة تحقيقا لأهدافها وغاياتها .

ثم إن التحليل النقدى يقدم الفارق بـين التعامـل الأوربـى مـع اليهـود والتعامـل الإسـلامى . الأول يعـاملهم بـوعى مسـبق يكـن لـهـم الكراهيـة ، ويعمـم هـذه الكراهية على جميع أفرادهم . أمـا الآخـر ، فليسـت لديـه الأحكـام المسبقة أو التعصب الأعمى ، ولكنه يتميز بالتسامح والاستيعاب والحماية والأمن .

وتبدو حركـة الشخصية اليهودية فـى روايـة " النـداء الخـالد " لنجيـب الكيلانـى ، موازيـة لحركـة الاستعمار اليهـودى لفلسطين فيمـا بعـد ، مـن حيـث التماثـل والأساليب والسلوك ، وربمـا النهايات أيضـا .

أما روايات نجيب الكيلانـى (دم لفطير صـهيون – عمر يظـهر فـى القـدس – أرض الأنبيـاء) ففيهـا معطيـات أخـرى أكثـر أهميـة وإثـارة حـول الشخصـية اليهوديـة فـى حياتهـا اليوميـة داخـل المجتمـع العربـى ، وحياتهـا العسـكرية المحاربـة ضـد هذا المجتمـع . وهذه الروايـات تحتـاج إلـى تحليـل نقدى آخـر يضـاف إلى التحليل النقدى الـذى قدمـه الـدكتور كمـال سـعد محمـد خليفـة فـي دراسته حول " النداء الخالد " .

***

البطل فى الرواية السعودية

هذا كتاب جيد لباحث جاد ، بذل فيه عمرا وجهدا ، حتى استوى سفرا عظيما خرج للناس ، يحمل إضافة واضحة إلى حقل الدراسات النقدية فى مجال الرواية السعودية لقد قدر لى أن أشهد بعض مراحل إعداد هذه الدراسة النقدية ، وأن أقرأ مسودات بعض فصولها ، وكنت أنصح الباحث أن يترفق بنفسه وأن يركز على بعض الجزئيات ، ولكنه أصر بدأب وصبر ومثابرة على مواصلة المسيرة ، ليتناول زوايا الموضوع جميعا ، فأكبرت فيه هذه الإصرار ، أو تلك الرغبة العارمة فى القراءة والاستقراء والاستقصاء ، مما جعله ينفق وقتا طويلا فى الاعداد والكتابة ..

لذا فالباحث " حسن حجاب الحازمى " من طراز فريد فى هذه الأيام التى يغلب على معظم باحثيها وكتابها : العجلة والسرعة والاهتمام بقطف الثمار قبل أن تنضج ، ناهيك عمن يبحثون عن الألقاب أو الدرجات العلمية دون أن يكون لديهم الاستعداد للقراءة أو المتابعة أو الرغبة فى المعرفة أصلا .

و " حسن حجاب الحازمى " من الموهوبين فى مجال الفن ، فهو شاعر واعد ، وقاص واع ، ولعله يفاجئنا ذات يوم بكتابة الرواية ، بعد أن عاش فى دروبها – باحثا – لفترة طويلة ، وما زال يعيش فى ثناياها باحثا أيضا ، وهو يعد بحثه الجديد لدرجة الدكتوراه .

إن كتاب " البطل فى الرواية السعودية " هو فى الأصل رسالة تقدم بها الباحث للحصول على درجة الماجستير ، وقد نالها بامتياز من كلية اللغة العربية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية ، وقد ضمت سبعة فصول يسبقها تقديم وتمهيد حول نشأة الرواية السعودية وتطورها ، ومكانتها فى إطار الرواية العربية بصفة عامة ، ثم إشارة إلى مفهوم البطولة وتنوعها ومصادرها .

يقدم لنا الباحث صورة البطل فى الرواية السعودية من خلال المذاهب الأدبية الحديثة ، وخاصة الرومانتيكية والواقعية ، ويتوقف وقفة طويلة

نوعا ما عند علاقة البطل بالشخصيات والأحداث ، فنرى هذه العلاقة من خلال الشخصيات الرئيسية أو الشخصيات الثانوية ، وأيضا نرى البطل الثابت والبطل المتحول ، والبطل الإيجابى والبطل السلبى ، ثم هناك علاقة أخرى للبطل بالبيئة المكانية والبيئة الزمانية والبيئة الثقافية ، بيد أن علاقة البطل باللغة فى الرواية السعودية ، تعد من أهم فصول البحث ، لأنها بصفة عامة مناط التميز الأدبى للروائى ، ومجال إبراز موهبته الحقيقية فى السرد ، وقد خصص الباحث مبحثين فى هذا الفصل ليتناول لغة السرد فى الرواية السعودية من حيث الأسلوب وسلامة اللغة ، والبطل راويا ومرويا عنه ، ولغة الحوار من حيث الأداء الفصيح والأداء العامى .
ويتطرق البحث إلى الأبعاد المختلفة لشخصية البطل فى الرواية السعودية مثل البعد الجسمى ، والبعد النفسى ، والبعد الاجتماعى ، ثم يحدثنا عن مشكلات البطل فى الرواية مثل الغربة بأنواعها : المكانية والاجتماعية ، ومعاناته بين المثالية والواقعية ، وهمومه الخاصة والعامة ومشكلة البطل حين يكون إمرأة ، وخاصة فى مجال التعليم ، وهناك فى هذا السياق إشارة إلى نهاية البطل ، وتعدد الأبطال أو البطولة .
ويخصص الباحث الفصل الأخير – الذى تعقبه خاتمة بنتائج البحث – للعلاقة بين المؤلف أو الكاتب والبطل الروائى فى الرواية السعودية ، فيعقد مقارنة بين شخصية الكاتب فى الحياة وشخصية بطله فى الرواية ، ثم ينظر إلى ثقافة الكاتب وتأثيرها فى تصوير شخصية البطل ، وبعدئذ يعدد موقف الكاتب من البطل ، سواء بالإعجاب والتقدير ، أو الاحتقار والسخرية ، أو المبالغة والاعتدال ، أو التصوير الجاد والتصوير الهزلى .
لقد دار البحث حول مايقرب من سبعين رواية سعودية _ ٦٨ بالتحديد) تمثل تقريبا ثلثى الإنتاج الروائى السعودى (٩٧ بالتحديد أيضا) فى القرن العشرين ، مما يشير إلى الجهد الكبير الذى بذله الباحث فى تتبع الإنتاج الأدبى الروائى فى المملكة العربية السعودية ، وتغطيته لمعظم هذا الانتاج بالدرس والتحليل والتقويم ، مما يشكل – كما قلت فى البداية – إضافة حقيقية إلى الدراسات النقدية المعاصرة فى الأدب العربى المعاصر .
ثم إن هذا البحث الضخم ، الذى تجاوز سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، تميز بمجموعة من الفهارس التفصيلية الدقيقة التى شملت الأعلام ، والروائيين ، والروايات ، والمصادر ، والمراجع ، والصحف والدوريات ، والجداول ، والموضوعات ، وهذا يعبر عن وعى فائق بتقديم تفاصيل البحث للباحثين والقراء بصورة سهلة وطيعة ومفيدة .

تبقى الاشارة الى أن هذا البحث مع اعتماده أو تركيزه على الجانب الفنى فى التحليل والموازنة والاحتكام إلى الأصول الفنية للبناء الروائى والقصصى ، فقد حرص على عدم إغفال الجانب المضمونى وما يندرج تحته من أهداف وغايات وقضايا عقدية وثقافية وفكرية ، ليحقق التوازن بين القيم الفنية والجمالية والغائية ، ثم ينظر كيف تحققت المعادلة الروائية فى العمل الروائى ، كما يلاحظ أن البحث اعتمد على الاستشهاد بنصوص كثيرة ليؤكد النتائج أو الأحكام التى يصل إليها الباحث .

إن كتاب " البطل فى الرواية السعودية " بشارة بكاتب جاد ، أديب واعد ، وقارئ ممتاز ، وهو مايجعلنا نحتفى به ، ونقف إلى جواره مرحبين بإنتاجه ، آملين أن يوفقه الله إلى السير على خطا الرواد ، مؤصلا وكاشفا ومبدعا .. كما نسأله سبحانه أن يقيه شر العثرات والزلات ، وأن يهديه وإيانا سواء الصراط ، والله المستعان .

***

مسيرة الرواية

لا شك أن الرواية فى العقدين الأخيرين مثلت نقطة ارتكاز مهمة فى المجال الإبداعى العربى ، لدرجة دفعت بعض النقاد والدارسين إلى عدها " ديوان العرب " بديلا عن " الشعر " – فن العربية الأول – ومع ما فى هذا الحكم من مبالغة ، إلا أنه يدل ضمنيا على أهمية ماوصلت إليه الرواية من كونها جنسا أدبيا مهمّا يلجأ إليه الأدباء لتحميله بمضامين وأفكار وأساليب ، تتجاوب مع الواقع المضطرم ، والمكتظ بالعديد من الرؤى والأحداث والتصورات والأحلام ، وهو ماأثر بالتالى فى كمية الإنتاج الروائى خاصة ، والقصصى عامة ، وجعل هذه الكمية تفوق فى ربع القرن الأخير مثلا ، ما تم إنتاجه فى الفترة السابقة عليه ، وإن كان ذلك لا يعنى أنه يفوقه فى المستوى والأداء بالضرورة .

ومتابعة الإنتاج الروائى تحتاج إلى جهد جهيد ، لأن هذه المتابعة لا تعنى تلخيص الرواية ، كما يفعل البعض ، وإنما هى دراسة شاقة تتبع خيوط الرواية وتكويناتها ومقارنتها إن لزم الأمر بالنظائر فى الأدب العربى أو الآداب الأجنبية ، لذا ، فإن أى دراسة جادة للعمل الروائى تلقى من القراء كل تقدير ومودة ، لانها تقدم لهم قراءة مساعدة على فهم الرواية وسبر أغوارها ، حتى لو كانت مختلفة فى بعض الجوانب مع تصوراتهم واستنتاجاتهم .

وقد سعدت بما يكتبه الصديق الدكتور " حامد أبو احمد " فى مجال المتابعة النقدية للرواية فى مصر والعالم العربى ، وقد أصدر قبل فترة الجزء الأول من كتابة " مسيرة الرواية فى مصر " ؛ ليضم مجموعة من هذه المتابعات النقدية كتبها فى النصف الأول من التسعينيات ، ونشرها فى مجلات وصحف مختلفة ، ثم أصدر فى العام الماضى الجزء الثانى من الكتاب ، وهو يضم مجموعة أخرى من القراءات للرواية لدى بعض الروائيين الذين يتقاربون فى المرحلة الزمنية أو يتفاتون تفاوتا زمنيا غير كبير ، أنه يتوقف عند بعض الاعمال الروائية ليحيى الطاهر عبدالله ، وعبدالفتاح رزق ،

ومحمد جبريل ، ومحمد يوسف القعيّد ، وأحمد الشيخ ، وفؤاد قنديل ، ورضوى عاشور ، وإبراهيم عبدالمجيد ، وأحمد شمس الدين الحجاجى ، ثم يلحق دراساته بعرض للسيرة الذاتية لنجيب محفوظ ، ومناقشة لحوار مع حمدى السكوت حول ازدهار الفن الروائى فى عقد التسعينات فى مصر .
والكتاب فى مجمله يشى بملامح الجدية والجهد فى قراءة الأعمال الروائية ، ويكشف عن معايشة المؤلف لكل كلمة فى هذه الأعمال ، ولم يكتف بذلك ، بل إنه وظف ثقافته الأندلسية – وهى فى الأساس تخصصه العلمى – مع معرفته الكبيرة بآداب الشعوب اللاتينية ، فى المقارنة بين الأعمال المقروءة ، والأعمال المناظرة فى هذه الآداب ، فضلا عن الأدب الإسبانى المعاصر ، وكنت أود للمؤلف أن يستغنى عن الملحق الذى أضافه إلى دراساته ، فموضعه فى كتاب آخر ، لأن الكتاب فى جزئه الأول وجزئه الثانى أوقف نفسه على قراءة الرواية بوصفها جنسا أدبيا نذر نفسه له ، أما السيرة الذاتية أو الكتب الوصفية ، أو التعليقات فلا مجال لها هنا .
أيضا كنت أتمنى أن تكون مسيرة الرواية منصبه على أعمال جيدة لكتاب لم يستوفوا حقهم من الدراسة والتعريف ، وخاصة أن بعض الأعمال التى تناولها الكتاب أتخمت دراسة ونقدا ، مع أنها من وجهة نظرى متواضعة القيمة موضوعا وفنا .
لقد كنت أناقش رسالة ماجستير فى إحدى الجامعات حول بعض الأعمال التى تضمنها كتاب الدكتور حامد ، فهالنى العدد الضخم من الدراسات حولها وحول صاحبها ، مع أن المسألة لا تستحق كل هذا الاهتمام ، فقد كان النتاج الذى قدمه المؤلف المعنى بالدراسة محدودا وهو عبارة عن رواية قصيرة وبعض القصص القصيرة ، وهو نتاج لا يتكافأ مع هذه المظاهرة النقدية الضخمة ، والسبب من ورائها معروف ، وهو الانتماء الى تيار معين يجيد أصحابه القدرة على الحشد والدعاية .
كذلك ، فإن موقف الدكتور حامد من قضية اللغة بدا مشايعا لموقف المتساهلين الذين لا يرون غضاضة فى استخدام العامية سردا وحوارا ، وأسمح لنفسى بمخالفته لأسباب عديدة ، أولها أن الفصحى – شئنا أم أبنيا – هى سر التفوق والمفاضلة ، والاستشهاد بيوسف ادريس وإصراره على " العامية " حتى فى بعض عناوين مجموعاته ليس دليلا قويا على قدرة العامية على التعبير الأقوى ، وثانيها أن الفصحى هى لغة الدائرة الأوسع ، خارج البيئة المحلية والوطنية بل والقومية ....
وإذا تذكرنا أن الأدب فى أساسه " تشكيل لغوى " فالعامية تخرج من السياق بلا جدال .

وكنت أتمنى أن يتشجع الدكتور حامد ، فيشير إلى توجهات بعض الكتاب التى حكمت عملية الانتاج الروائى وصبغته موضوعا وفنا ، وجعلت بعضها مفتعلا وزاعقا وخطابيا حتى لو تمسح صاحبه بمعالجة القضايا الاجتماعية للمحرومين والمستضعفين .

مهما يكن من أمر ، فإن المرء يسعد بوجود كاتب ناقد مثل " حامد أبو أحمد " يمد قلمه فى الساحة الأدبية ليقدم دراسات مهمة وكتابات جادة ، واضحة اللغة ، مباشرة التعبير ، رحبة الصدر ، ممتدة الثقافة ، وهى بلا شك تملأ فراغا صنعه الخواء الثقافى الذى ساد بحكم الكتابات المسطحة السريعة ، القائمة على الانحياز وضيق الأفق وركاكة التعبير .

***

قراءة جديدة لكتاب أسرار البلاغة

لا أظن أحدا قد أشار إلى القراءة الجديدة لكتاب الإمام عبدالقاهر المعروف " بأسرار البلاغة " ، مع أنها صدرت قبل خمس سنوات تقريبا ، فى طبعة أنيقة متقنة ، عامرة بالشرح والتعليق ، والفهارس التفصيلية التى تتجاوز المائة صفحة بصفحات كثيرة ، إنها قراءة العلامة المحقق " محمود محمد شاكر " – أبى فهر – يقدمها بعد نحو عشر سنوات من قراءته السابقة لكتاب " دلائل الإعجاز " الشهير للإمام عبد القاهر أيضا . ولست ألوم الحياة الثقافية على إهمالها لقراءة الكتاب الأول أو الكتاب الثانى ، فقد تفشت فى حياتنا بعامة ، وثقافتنا بخاصة ، آفة " الاستهانة " بكل ماهو جاد وجيد لحساب ماهو هامشى وثانوى .. وقد تحدث الأستاذ شاكر فى مقدمته عن هذه الآفة وأسهب فى الحديث ، وإن كان قد ربط الحديث عنها بقضايا كبرى أثرت على واقعنا وحاضرنا فى نواح كثيرة .

ومقدمة التحقيق أو القراءة بيان طويل حول " الاستهانة " بقدر العلم والعلماء ، فقد نشأت أجيال من الدارسين تتجرأ على البلاغة وعلومها ، وتصفها بأنها عجوز شمطاء ، ولا يتورعون عن الزراية بالسكاكى والسعد والتفتازانى ، ويعلمون طلبتهم أن الذى يلجأ إلى البلاغة العربية القديمة ، هو كالمريض الذى يلجأ إلى حلاق القرية ليداويه ، أن يقف أستاذ فى أيامنا هذه يعلم النحو ، ويقول للطلبة الصغار ، مزهوا بعلمه : كنت أحب أن يجلس سيبويه بينكم ليتعلم منى النحو ! وأساتذة آخرون يقولون للصغار من الطلبة : إنما أفسد نحو العربية سيبوية وابن عقيل وابن هشام وأضرابهم بما كتبوا وألفوا !!

ويقول أساتذة آخرون : إن الذى أفسد " موسيقى الشعر العربى " ، هو الخليل بن أحمد ومن جاء بعده من علماء " العروض " !!

وبيان الأستاذ " شاكر " مهم للغاية ، وأتمنى أن يقرأه الباحثون فى أيامنا ليدركوا مدى ماأصاب حياتنا العلمية والأدبية من فساد متبجج ، وغرور كريه ، وادعاء أحمق ، خاصة فيما يتعلق بتراثنا المضيء ، وكتابا عبد

القاهر " الدلائل والأسرار " من هذا التراث المضيء بكل تأكيد ، وقراءتهما واستيعابهما من الأمور الصعبة التى تحتاج الى رجال من أولى العزم الذين يصبرون على القراءة والاستيعاب ... ومن ثم ، تبدو الشروح والحواشى التى ألفها العلماء الأجداد حول كتب البلاغة وموضوعاتها من العناصر المهمة التى تعين على فهم المتون ، وتذلل ماغمض منها ، وينبغى ألا يستهين بها مستهين ، يقول الأستاذ شاكر فى مقدمته لأسرار البلاغة :
" بيد أن ماكتبه عبدالقاهر سوف يبقى بإذن الله نبراسا وسراجا منيرا لكل من يسّر له الله الإخلاص والهمّة والسعى المبصر فى طلب الكشف عن بلاغة الألسنة البشرية عامة ، واللسان العربى المبين خاصة ، وسيبقى بمشيئة الله ما كتبه الأئمة من الخلف الذين جاءوا من بعده ، دليلا هاديا يمهد الطريق لمن أراد من أهل زمننا ، ومن يجيء بعدنا ، أن يهجر الثرثرة الفاشية فى زماننا وزمانهم ، مهاجرا إلى الصدق المؤدى إلى بلوغ الحق ، حتى تستتب الخطى ، على الطريق المستقيم "
لم تتطرق مقدمة القراءة أو التحقيق إلى منهج " أسرار البلاغة " أو مضمونه ، لكنها اكتفت بالحديث عن نشره ، ودور " محمد رشيد رضا " والأستاذ الإمام فى هذا النشر الذى تم فى مطلع القرن العشرين ، ويعيد الأستاذ " شاكر " نشر مقدمة " محمد رشيد رضا " ، وكان المستشرق " ريتر " قد نشر الكتاب ، ولكن على طريقة " ضعاف المحققين " الذين يكثرون من الثرثرة فى ذكر المراجع المتأخرة ... ومع ذلك – كما يقول شاكر – فإن جهد " ريتر " جهد مشكور ، مع مافى طبعته من عيوب .
وكان الدكتور " محمد عبدالمنعم خفاجى " قد نشر الكتاب ، قبل عقدين من الزمان تقريبا ، وقدم له بدراسة طويلة حول المؤلف والكتاب ، ولكن الأستاذ " شاكر " أغفلها ، وإن بدت نشرة خفاجى معتمدة على نشرة محمد رشيد رضا .
لا شك أن " أبا فهر " صنع فى " أسرار البلاغة " صنيعا متقنا ونادرا ، فقد صبر على تشكيل المتن تشكيلا دقيقا ، وراجع المخطوط على المنشور ، وخرج النصوص النثرية والشعرية ، وفصل العناوين ، وجعل من الفهارس أداة طيعة للباحثين تعينهم على فحوى الأسرار ومكنونه .
لا ألوم الحياة الثقافية على إهمالها لقراءة أبى فهر لكتاب الأسرار ، فقد تفشى داء الاستهانة ، حتى استهان بنا أهل المهانة ، ولكن يعزينا أن أهل الجد والعزم فى معتزلاتهم ومكتباتهم يطالعون مايكتبه أهل الجد والعزم .. وهو مايبشر بالأمل القادم – إن شاء الله – ولو بعد حين .

القسم الثانى
أعلام وأدباء

أعلام العصر

يعدّ الدكتور محمد رجب البيومى من الكتاب المرموقين فى ثقافتنا الإسلامية المعاصرة ، وهو أديب وشاعر وباحث وعالم وأستاذ جامعى ، يعترف بفضله وقيمته ألوف القراء والتلاميذ على امتداد الأرض العربية الاسلامية ، ويميزه الهدوء والبعد عن ضجيج الأضواء ، وقد آثر أن يعيش فى مدينته المنصورة ليقرأ وينتج ويعلم ، دون أن تستهويه لعبة الجرى وراء الدعاية ... ومن حين إلى حين يقدم إلى الجمهور كتابا مفيدا ، أو بحثا قيما أو مقالا مفيدا ، أو قصيدة حية ..

وقد صدر له مؤخرا كتاب مهم يقدم فيه رهطا من أفاضل العلماء والأدباء من شتى البقاع العربية ، بعضهم ذهب إلى لقاء ربه ، وبعضهم مازال حيا يرزق حتى كتابة هذه السطور نسأل الله لهم طول العمر ونعيم العافية .

يحمل الكتاب عنوان ، " من أعلام العصر – كيف عرفت هؤلاء ؟ " (صدر عن الدار المصرية اللبنانية ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م) ويقع فى ٣٨٩ من القطع الكبير ، ويضم رؤية الكاتب لأكثر من خمسين شخصية ، منهم:

عبدالرحمن شكرى ، منصور فهمى ، أحمد حسن الزيات ، عبدالكريم جرمانوس ، محمد إسعاف النشاشيبى ، محمد أمين الحسينى ، محمد فريد وجدى ، زكى مبارك ، عبدالوهاب عزام ، محب الدين الخطيب ، محمد الغزالى ، خليل مطران ، عبدالقدوس الأنصارى ، محمد زاهد الكوثرى ، على أحمد باكثير ، محمد سعيد العامودى ، صديق شيبوب ...

لقد عايش الكاتب هذه الشخصيات واقترب منها بصورة وأخرى ، فسجل عنها صورة قلمية أدبية رفيعة ، تتجاوز الترجمة الحرفية الجافة إلى تقديم لوحة تظهر فيها الأضواء والظلال ، والمسافات والأبعاد ، والنسب والألوان ، بحيث نستطيع ان نقول إننا أمام عمل فنى ممن طراز خاص ..

إن هذه اللوحة الفنية لا تتوقف عند تاريخ ميلاد الشخصية أو مؤهلاتها أو وظائفها الرسمية أو غير الرسمية ، ولكنها تتوقف عند الإنسان فى رؤيته وسلوكه ومنهجه ، وموقفه من القضايا الكبرى والموضوعات الإنسانية ..

كثيرا مايستدعى الكاتب حكايات وطرائف جرت بينه وبين الشخصية موضوع الحديث ، ومهمة هذه الطرائف أو الحكايات الكشف عن جانب عميق من الشخصية تفسره الطرفة أو الحكاية ، فضلا عن بث الحيوية والتشويق فى موضوع يعد كاتبه شاهدا عليه وطرفا فيه .
يقول عن " محمد إسعاف النشاشيبى " :
" تجلس مع أديب العربية الأكبر المغفور له الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى ، علامة فلسطين ، ووارث علم سيبويه والمبرد والأصمعى ، فتحار كل الحيرة فيما تلمس من سعة إطلاعه ، وتنوع معارفه ، وغوصه على الدقائق الدفينة فى مطاوى المخطوطات ، فضلا عن المطبوعات ، ولست وحدك الذى يحار ، فكل من يستمعون إليه فى مجلسه الحاشد يعجبون ويشهدون ، وهم – بعد – فى طليعة المثقفين غزارة مادة ، وشمول ثقافة ، وشدة تنقيب ، إذ كان الرجل – رحمه الله – موسوعة علمية تنطق بما ضمت من الذخائر والكنوز " ص ٣٧ .
ويصف الشيخ " محمد الغزالى " بأنه من أكبر دعاة الاسلام فى هذا العصر ، إن لم يكن أكبرهم جميعا ! ويعلل لذلك بأنه يملك مع روعة البرهان وقوة الإيمان ، وصلابة العقيدة أسلوبا حارا يتوهج حمية ، ويلتهب غيرة ، أسلوبا يملك مشاعر المستمع حين يكون الغزالى خطيبا ، ويأسر عواطفه حين يكون الغزالى كاتبا ، وهو من الأستاذ حسن البنا رضى الله عنه بمنزلة محمد عبده من جمال الدين الأفغانى ، إذ شرح أصول فكرته ، وحلل عناصر دعوته ، وأيد مسعاه بالفكر المستنير والرأى الصائب ، وقد رزق الله مؤلفاته حظوة بالغة لدى الخاص والعامة ، فتكسح الباطل وتنصر الحق ، ص ١١٤ .
ويستعرض الدكتور البيومى ذكرياته مع الغزالى فى مصر والسعودية ، ويقارن بينه وبين محمد عبده ويشير إلى موقف الرئيس السادات منه ، وكتاب هموم داعية ، ليصل إلى توضيح دور الغزالى فى مواجهة خصوم الإسلام على أكثر من جبهة .
وعندما يتناول الشيخ " على عبد الرازق " الذى أثار زوبعة مازالت بقاياها حتى اليوم ، بإصدار كتابه " الإسلام وأصول الحكم ، يكشف عن مفاجأة حين أعلن تراجع الرجل عن مقولة إن الاسلام مجرد صلة روحية بين العبد وربه ، وليس دستور معاملة وتشريع ، وذلك فى مقالة له بمجلة " رسالة الإسلام " كما يشير الكاتب إلى أن " على عبد الرازق " أبلغه عن مرافعات قضائية له أثبت فيها أصولا كثيرة من الأحكام الشرعية .

إن كتـاب " مـن أعـلام العصـر " موسـوعة موضـوعية تكشـف كثيـرا مـن الجوانب المضيئة والحقيقية لأعلام راسخين نابهين ، أهملتهم الحياة الثقافيـة والأدبية ، والكتاب –على كل حال – يعيد إليهم " الاعتبـار " ويقدمهم أمثلـة رفيعة للقدوة ، فى عصر غامت فيه الرؤى ، واختلطت فيه التصورات .

***

محمد عبدالحليم عبدالله

أديب كبير .. ظلمته البحيرة ؟

ظلمت محافظـة البحيـرة الأديـب الراحـل محمـد عبـدالحليم عبـدالله مـرتين ، الأولى منذ وفاتـه (٣٠ يونيـة ١٩٧٠) حتـى الآن ، حيث نسيته تماما ولـم تذكره بخير أو شر ، وكان محافظها الأسبق " على فوزى يونس " قد فزع لوفاة الأديب الكبير ، وخاصة أنه رافقه قبيل رحيلـه عنـدما ألمت بـه الأزمـة الصحية المفاجئـة ، ووضـع كل الإمكانـات المتاحـة لعلاجـه ، ولكن قدر الله سبق .. فكرمه الرجل بعد الوفاة ، وأسهم فى إقامـة متحـف لـه بقريتـه " كفر بولين " مركز كوم حمادة بحيرة .. ومن يومها والمحافظـة مشغولـة بقضـايا أخرى ليس من بينها الأديب الكبير.

الثانية عندما فكرت المحافظة مؤخرا فى تكريمه بوصفه علمـا مـن أعلامهـا البارزين ، فاتصلت قبل أكثر من عام الثقافة الجماهيرية ، بعدد من الأساتذة والنقاد ليعدوا دراسات من أجل احتفـال يليـق بالأديـب الراحـل ، وبعـد تقـديم البحـوث والدراسـات رأى موظـف مـن الثقافـة الجماهيريـة فـى القـاهرة أن الدراسـات ـ وأصـحابها أسـاتذة جـامعيون ونقـاد مرموقـون – لا ترقـى إلـى المسـتوى المطلـوب ، ورفضـها جميعـا ، وتأجـل الاجتمـاع أكثـر مـن مـرة لاسـباب شـتى يصـنعها بعض المـوظفين المسئولين فـى الثقافـة الجماهيريـة بالقاهرة ، حتى سمح هذا البعض بعقد مؤتمر حول الرجل أخيرا ..

وبـدأ كـأن الأمـر يسـير فـى اتجاهـه المعقـول .. ولكـن شـاء حـظ " محمـد عبدالحليم عبدالله " التعس أن يصرّ أحد موظفى الثقافة الجماهيريـة بالقـاهرة على تسمية المهرجان تسمية تسيء للرجل أكثر مما تكرمـه وتقدره ، فجعـل عنوان المؤتمر : " الرواية الرومانسية : محمد عبدالحليم عبد الله نموذجـا ! " .

الأديب الراحل محور فـى الروايـة الرومانيسية ، ومـا أدراك الآن بالروايـة الرومانسية ؟ ووقع التسمية فى نفوس السـادة المهيمنين علـى الحيـاة الأدبيـة والثقافية فى مصر ، فهم يعدونها تخلفا فاحشا لايليق بكاتـب ، ووصـمة عـار

ينبغى التخلص منها ، ولكن الكاتب كى يرد الصاع صاعين لمن يريدون الاحتفال بالكاتب الراحل ، وضغطوا لأجل إتمامه ، أصر على هذه التسمية بحجة أن الثقافة الجماهيرية لا تحتفل " بأفراد " (!) ، ولكنها تحتفل بموضوعات !

لاريب ان " الرومانسية " لا تعيب من يؤمن بها ، فقد كانت فى زمانها مذهبا أدبيا ثوريا ، تمرد على المذهب الكلاسيكى وكتابه ، ولكن حل بعد ظهور الواقعية تمرد آخر ، مثلما جرى للكلاسيكية (الصواب كلاسيك ورومانتيك ولكنه إيثار الخطأ الشائع) ، وفى الستينيات حمل النقاد والكتاب الاشتراكيون فى مصر على الكلاسيكية والرومانتيكية جميعا ، ووقع عدد كبير من الكتاب والشعراء ضحايا لهذه الحملة ، ومن بينهم " محمد عبدالحليم عبدالله " الذى يعد صنو نجيب محفوظ فى الأدب الروائى المعاصر بلا منازع ، ولكن الدنيا حظوظ !! وكان موظف الثقافة الجماهيرية يأبى إلا أن يذكر بمرحلة الستينيات ، وينال من الرجل بعد رحيله .

كان " محمد عبدالحليم عبدالله " كاتبا رحب الآفاق ، صحيح أن له روايات تصنف ضمن الرواية الرومانتيكية ، ولكنه أيضا كتب رواية واقعية رومانتيكية ، وكتب رواية واقعية خالصة ، وكتب رواية تاريخية ، وهو مايجعل العنوان الذى يحمله المؤتمر لتكريمه عنوانا زائفا يناغى رغبة خبيئة لا تليق بأحد يحمل ذرة من موضوعية !

صحيح أن قوة بعض الموظفين فى الثقافة الجماهيرية قد بلغت حدا تتقاصر أمامه إرادة الأدباء بل والمسئولين الكبار ، وصحيح أن بعضهم يعطى لنفسه الحق فى الحكم على إرادة الأدباء بل والمسئولين الكبار ، وصحيح أن بعضهم يعطى لنفسه الحق فى الحكم على الآخرين انطلاقا من موهبة ضحلة أو شبه موهبة ، وصحيح أن بعضهم يملك القدرة على التصرف فى ميزانيات ضخمة ، يمنح ويمنع كما يحب (قيل إن انحرافات الثقافة الجماهيرية وصلت الى خمسين مليون ولم يفلح استجواب الوزير فى تحريك أحد) ، ولكن من قال إن على المثقفين أن يخضعوا لإرادة الموظفين ؟

إننا نسمع عن احتفالات وتكريمات لأشباه الأدباء ، وبعضهم لايحسن إقامة جملة صحيحة .. وتصدر أعداد خاصة من مجلات تملكها الدوله عن كتاب لا يرقون الى مستوى الدرجة الثالثة .. وتتكلم الدنيا عن مؤتمرات شكلية تنفق فيها عشرات الألوف من أموال الثقافة الجماهيرية التى هى أموال الشعب المصرى .. فلماذا توضع كل عقد العالم أمام المنشار عندما تطلب

محافظة البحيرة الاحتفال بواحد من أبنائها الأعلام مثل " محمد عبدالحليم عبدالله " ؟ هل لأنه لايروق بفكره ومنهجه وفنه لبعض موظفى الثقافة الجماهيرية فى القاهرة ؟
كنت أتمنى أن تتولى محافظة البحيرة أمر الاحتفال " بمحمد عبدالحليم عبدالله " كاملا ، ولا تنتظر دعما من موظفى الثقافة الجماهيرية بالقاهرة ، وكانت تستطيع أن تقيم مؤتمرا يشد الأسماع والأبصار والعقول والأفئدة ، وقبل أسابيع أقامت مهرجانا فنيا أنفقت فيه الكثير ... لكن استسلامها لموظفى القاهرة جعلها تظلم المحتفى به مرة أخرى .
ومهما يكن من أمر ، فقد كان محمد عبدالحليم عبدالله وساما على صدر مصر ، تفخر به وتباهى فى مجال الأدب والثقافة ، ولن ينال منه بعض الموظفين ، وأكبر دليل على ذلك أن كتبه بعد رحيله منذ ثلاثين عاما تقريبا مازالت توزع بكثرة تفوق توزيع من تحتضنهم أجهزة الدعاية فى أيامنا ، وتلح فى الحديث عنهم ليل نهار !

***

عالم جليل !

فـى الأيـام الماضـية ، فقدت مصـر عـالم جلـيلا ، وأسـتاذا فاضـلا ، أثـرى المكتبـة العربيـة بتـراث أدبـى وثقـافى مهـم ، وكـان مثـالا للباحـث المتجـرد ، والمعلم الملتزم ، والمفكر الحر .. إنه الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا (١٩٤٠ – ١٩٩٨) رئيس قسم اللغة الفارسية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة .

لـم يسـعدنى الحـظ بمصـاحبته طـويلا ، ولكنـه أسـعدنى بـالتعرف عليـه أيـام الغربة عن الوطن ، حيث التقينا مرات قليلة فى بعض الندوات والمناسبات ، وكـان فـى خلالهـا صـاحب روح مرحـة ، بسـيطا ، محبـا للمداعبـة .. وفـى الوقت ذاتـه ، كـان جريئـا وواضـحا فـى عـرض رأيـه ووجهـة نظـره ، يقـول مايؤمن به دون مواربة أو مراوغة .

كانـت معرفتـى الأعمـق بالرجـل عـن طريـق كتاباتـه ، وفيهـا يظهـر إيمانـه بالحضارة الإسلامية على امتداد العالم الإسـلامى ، وكـان توجهـه للدراسـات الفارسية والتركية تعبيرا عن هذا الإيمـان ، وهـو يـرى أن ضـرورة دراسـة الآداب والثقافـات الشـرقية تفرضـها ظـروف التفاعـل الطبيعـى والشـامل مـع الآخـر ، وينبغـى ألا يقتصـر اهتمامنـا علـى الثقافـة الغربيـة .. أيضـا فـإن الحساسيات السياسية يجب ألا تقف حـائلا بيننـا وبـين الآخـرين فنحن نقـرأ ونـدرس ونتـرجم كـل شـيء فـى الفكـر الغربـى مـع أن مأسـاتنا قديمـا وحديثـا كانت على يد الغرب ، لذا يجب أن يمتد تعاملنـا أكاديميـا وثقافيـا وفكريـا مـع أهـل الشـرق – وفـيهم أشـقاء لنـا – داخـل إطـار مـن الانفتـاح والتواصـل والتفاعل ..

لقد تعرض الرجـل فـى حياتـه إلـى بعض المواقـف الصـعبة ، فقد لفقت لـه إحـدى القضـايا السياسـية وبـرأه القضـاء .. وفـى الخـارج تعـرض لوشـاية رخيصة من بعض الصغار أدت إلى ترحيله من الجامعة التى كان معارا لها ، وامتثل للترحيل ، وعاد إلى مصر ليواجه الأمـر أمـام القضـاء ، ولا أدرى هل أنصفه قبل رحيله أم لا ؟

بيد أن هذه المواقف ، لم تحل دون أن يواصل دوره فى القراءة والكتابة والترجمة والتعليم ، ويقدم للأمة أعمق الكتابات والدراسات .. ولعل أبرزها كتاب " المثنوى " لمولانا جلال الدين الرومى أكبر شعراء الفارسية ، ومع أن هناك أكثر من ترجمة للمثنوى سبقت ترجمته ، قام بها المستشرقون وغيرهم ، فإن جلال الدين الرومى ظهر فى ترجمة شتا ، فيلسوفا واعيا ميدانه الأول تربية الإنسان المسلم الحقيقى ، وفى الوقت ذاته يدرك جيدا الأخطار التى تحيط بالاسلام ، وكان المستشرقون الذين ترجموا الرومى ، قد قدموه لنا صوفيا هائما غارقا فى الوجد ، محلقا فى سماوات العرفان ،. (راجع السيد أبو داود – الحركة الاسلامية : رؤية من الداخل ، ٢٤١) .
لقد قام المجلس الأعلى للثقافة بنشر " المثنوى " فى ستة أجزاء ضخمة (تزيد عن ثلاثة آلاف صفحة) – وهى إحدى حسناته – وفى هذه النشرة يظهر جهد الراحل الكريم دالا على عمق ثقافته وسعة اطلاعه ورهافة حسه ودقة شعوره ، وإلمامه العريض بالتراث الإسلامى على امتداد العصور وتنوع الفروع .. ويمكن القول إن الشروح والتعليقات التى ألحقها بالمثنوى – وقد جاءت فى ضعف صفحاته – تمثل إضافة مهمة إلى ثقافتنا المعاصرة ، إسلامية وعربية على السواء .
ومع هذا الجهد الضخم ، يأبى " إبراهيم الدسوقى شتا " إلا أن يكون متواضعا ، مثله فى ذلك مثل العلماء الحقيقيين الأصلاء ، فيذكر أنه لم يقدم الترجمة القاطعة الفاصلة لمثنوى جلال الدين الرومى ، ولا الشروح التى تقطع قول كل خطيب ، وقد يعود إليه ، كما يعود غيره .. " فكلها عطيات ، والعطيات بقدر القابليات " (مقدمة المثنوى : ٧/١)
وهناك عمل آخر أنجزه الراحل الكريم وهو " حديقة الحقيقة وشريعة الطريقة " لسنائى الغزنوى ، وهو من المنظومات الشعرية المهمة لشاعر مهم فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ومع أن هذا العمل الذى يقع فى اثنى عشر ألف بيت ، قد ترجم من قبل ، فإن جهد " إبراهيم الدسوقى شتا " استحق جائزة المجلس الأعلى للثقافة فى الترجمة ، وهى جائزة بين التشجيعية والتقديرية .إن الراحل الكريم ، لم يكن مجرد أستاذ جامعى ، أو مترجما محايدا يقبع بين أروقة الجامعة أو جدران المكاتب ، ولكنه كان إنسانا يضنيه واقع أمته ، وتؤلمه هزائمها المتوالية ، وتغيظه بعض الممارسات الفكرية والثقافية التى تتسم بعدم الفهم أو التضليل أو القصور ، ومن هنا جاءت أعماله ودراساته لتصب فى مجال إزالة التسطيح ، ومقاومة التخريب ، ومكافحة التغييب ...

لقد رحل إبراهيم الدسوقى شتا وهو فى أوج العطاء ، وكان الناس ينتظرون منه الكثير ، ولكن قدر الله سبق .. رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له الثواب والعطاء ، بقدر مابذل لأمته ودينه ووطنه .

***

....

العلامة محمود محمد شاكر

رحيل رجل شامخ

قبل أسابيع قليلة من رحيله كتبت كلمة عن قراءته لأسرار البلاغة ، كنت أتمنى أن يقرأها في مرضه ، ولكنه باغتنا ورحل شامخا ، كما عاش شامخا وقبل أكثر من ثلاثين عاما ، توطدت صلتي بأبي فهر ، مع أني لم ألتق به قط ولم أره ، فقد تهيبت لقاءه ، مع أن بابه كان مفتوحا ،وكان كثير من الزملاء والأصدقاء يذهبون إليه ، ويتحدثون معه ، ويعرضون عليه مشروعاتهم فى التحقيق والقراءة ، كانت علاقتى به من خلال مايكتبه ، قراءة واستيعابا واستفادة فيما أكتب ، وشدنى إليه عنصر نادر فى هذا الزمان ، أشار إليه ولده فهر وهو " الإتقان " ، وما أدراك ما الإتقان فى عصر السرعة ، والفهلوة، ومشى حالك " ! ؟

لقد نذر نفسه ليجود عمله ، ويتقنه من خلال مفهوم إسلامى مبدئى ، أشار إليه فى خاتمة كتابه عن " القوس العذراء " ، وظل ملتزما بهذا المفهوم حتى باغتنا بالرحيل بعد تسعين عاما حافلة بالاتقان والإنجاز والجهد والإضافة ..

معالم الاتقان كثيرة ، ومبثوثة فى ثنايا أعماله وقراءاته ، بدءا من تشكيل الكلمات ، واستخدام علامات الترقيم ... حتى تحرير أصعب المسائل العلمية والتاريخية والأدبية والثقافية .. يقضى الوقت ويكتب الصفحات الطوال ليثبت فكرة ارتأى صوابها أو ترجيحها ، ولا يعنيه ذلك العرض الزائف والزائل الذى يلجأ إليه أشباه الكتاب والأدباء ، من اهتمام بالكم على حساب الكيف ، أو مخاطبة وسائل الدعاية قبل مخاطبة العلم والمنهج وشرف المعرفة ..

ولعل أوضح مظهر لذلك يتمثل فى كتابه " المتنبى " الذى أثبت فيه ، وبطريقته ، انتماءه العلوى .. ولم تكن قضية الانتماء هى قضية الكتاب أو لبّه ، فالقضية جرت قضايا ، وفجرت مسائل تجاوزت موضوع نسب

المتنبى وأصوله ، وكانت منطلقا للإبحار فى عالم الحضارة الإسلامية وهمومها منذ المتنبى حتى عصرنا الحافل بالأحزان والآلام وخاصة فى مجال الثقافة والفكر ومناهج البحث .. وتحول الكتاب الذى كان مجرد عدد خاص من مجلة " المقتطف " ، صدر فى أواسط الثلاثينيات بمناسبة الذكرى الألفية للمتنبى إلى كتاب ضخم يتكون من مجلدين كبيرين ، أضيف إليهما قبل سنوات كتاب آخر بعنوان " رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا " ، فأشعل الحياة الثقافية في الوطن العرب ، وأثار كثيرا من التعليقات والمناقشات .

وكانت قضية الاتقان والتحرى والدقة سببا رئيسا من أسباب تأليف كتابه الشهير " أباطيل وأسمار " ، فقد رأى استهانة عابثة ، مقصودة أو غير مقصودة ، بتراثنا وأعلامنا ، فتحرك قلمه ليصحح ويوضح ، ويكشف ويفضح ، ولم يبال المخاطر ، ولم يخف المحاذير ، ومع أن لغته كانت حادة ، فقد حمد له الناس جرأته ، وأصالته ، ووعيه ، وعمق ثقافته ، وسعة إدراكه .. ومع أن هذا الكتاب قد جر عليه من المتاعب والمشاق مالم يحتمله إلا أولو العزم من الرجال ، فقد تقبل الأمور بثقة فى الله ، وإصرار على المنهج ،

ولعل أبياته التى صدر بها رسالة الكتاب ، وهى للمعرى ، تكشف لنا عمق إيمانه الراسخ بما يعتقد ويكتب :

ويقول دارى من يقول ، وأعبدى !	مه ، فالعبيد لربنا والدار
يا إنس ، كم يرد الحياة معا شر	ويكون من تلف لهم إصدار
أتروم من زمن وفاء مرضيا ؟	إن الزمان ، كأهله غدار
تقفون ، والفلك المسخر دائر	وتقدرون ، فتضحك الأقدار

لاريب أن العلامة " محمود محمد شاكر " – أبا فهر – قد اختار النمط " الصعب " .. بل النمط " المخيف " من الحياة . وهو نمط الجدية والإخلاص ، الذى يلقى على صاحبه مسئوليات كبيرة ، وأعباء ثقيلة ، ارتضاها لنفسه مذ كان شابا فتيا يدرس العلوم ، ولكنه اختار كلية الآداب التى تمرد عليها ليدرس اللغة والأدب والتاريخ والثقافة بجهده الخاص ، فيقدم لنا صورة أخرى من عصامية " العقاد " و " الرافعى " ومع تأثره بالأخير ، فلم يكن نسخة منه ، ولكنه كان عالما قائما بذاته ، يعيش مع النصوص بصبر وأناة ومثابرة ، وهو ما مكنه من قراءة النصوص الصعبة وتقديمها للجمهور فى صورة لائقة ؟؟ ولاأظن أحدا من العرب أو المستشرقين قرأ مثلا دلائل الإعجاز ، أو أسرار البلاغة ، مثلما قرأهما أبو فهر ، فقراءته غنية وثرة وشامخة ..

إن " محمود شاكر " من أسرة خدمت الإسلام واللغة والأدب والتاريخ ، ويستحق من الأمة " وفاء مرضيا " – كما يقول شيخ المعرة – ولا أقل أن تعرف الأجيال الجديدة جهد الرجل وحسن بلائه فى سبيل الإتقان والانجاز .. يرحمه الله

***

أحمد حسن الزيات

ولد بقرية كفر دميرة القديم التابع لمركز طلخا عام ١٨٨٥-١٣٠٢ هـ ، وتعلم فى الأزهر ، ولم يكمل دراسته فيه . عمل مدرسا فى التعليم الأهلى ، ودرّس اللغة العربية فى مدرسة " الفرير " نحو سبع سنوات . والتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة . ودرّس الأدب العربى فى المدرسة الأميركية بالقاهرة عام ١٩٢٢ ثم فى دار المعلمين العليا ببغداد ١٩٢٩ ، وأقام هناك ثلاث سنوات ألف فيها كتابه العراق كما عرفته ، واحترق الكتاب قبل نشره ، وكان أخبرنى عن كتاب آخر ألفه هناك اسمه " وعود الإسلام " ولم ينشر أيضا ، ولعله ضاع منه ، وعندما عاد إلى القاهرة من العراق أصدر مجلة الرسالة سنة ١٩٣٣ واستمر إصدارها حتى احتجبت سنة ١٩٥٣ . كما أصدر إلى جانب الرسالة مجلة الرواية لتعتنى بفن القصة عموما ، ولكنها لم تعمر طويلا فأغلقها قبل احتجاب الرسالة .

انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وشارك فى أعماله المعجمية التى أصدرها المجمع ، وكذا تعريب الألفاظ ، ومن أبرز مشاركاته مع آخرين " المعجم الوسيط " المتداول الآن ، ويعد من أفضل المعاجم الملائمة لعامة المثقفين .

عين عضوا بالمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، كما نال شرف عضوية المجمع العلمى العربى بدمشق ، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٦٢ رأس تحرير مجلة " الأزهر " منذ عام ١٣٧٢ هـ حتى وفاته عام ١٩٦٨ م =١٣٨٨ هـ حيث دفن فى قريته .

وكانت وزارة الثقافة فى عهد الدكتور محمد عبدالقدر حاتم قد أعادت إصدار الرسالة برئاسته عام ١٩٦٣ ، ولكنها أغلقت عام ١٩٦٥ مع مجلات أخرى إثر معارك فكرية طاحنة بين التيارات السائدة . خلف الزيات عددا من الكتب المهمة ، منها :

- تاريخ الأدب العربى .

- دفاع عن البلاغة العربية .
- وحى الرسالة (أربعة أجزاء) .
- فى ضوء الرسالة فى أصول الأدب .
- ترجم عن الفرنسية "آلام فرتر " للكاتب الشهير " جوته " .
- ترجم " روفائيل " للامارتين .
- فى ضوء القمر . مجموعة قصصية مترجمة .

وقد تناوله عدد من الأدباء في دراسات موسعة ، منها ماكتبه السيد جمال الدين الألوسى فى كتاب تحت عنوان " أدب الزيات فى العراق " ، وهناك دراسات أخرى للدكتور محمد رجب البيومى ، الذى حاول إصدار الرسالة مرة ثالثة ولكن محاولته لم توفق ، والدكتور محمد جاد البنا ، يرحمه الله ، وأديبه عراقيه أخرى .. وقد خصصت له فى كتابى " مدرسة البيان فى النثر الحديث " مساحة كبيرة تقرب من مائة صفحة .. هذا عدا المقالات التى نشرتها الصحف المصرية والعربية فى حياته وإثر وفاته وفى ذكراه السنوية . وقد وصفه صاحب الأعلام بأنه كان من أرق الناس طبعا ، ومن أنصع كتاب العربية ديباجة وأسلوبا .

كان الزيات من جيل الرواد الذين أسسوا للأدب العربى الحديث وأقاموا له بنيانا متينا جميلا ، وكان بأسلوبه الذى يتميز بالأناقة والنضارة والموسيقى من أرقى أساليب مدرسة البيان فى النثر الحديث ، وكانت " الرسالة ، وسيلة اتصال بين الشعوب العربية والاسلامية لدرجة أن الأدباء فى بعض العواصم العربية كانوا يسمون اليوم الذي تصل فيه الرسالة باسم " الرسالة " ولو كان اسمه الأربعاء أوالخميس أو الجمهة .

وقبل ذلك وبعده كانت الرسالة ديوانا للعرب والمسلمين ؛ تحدثوا فيه عن مشكلاتهم وقضاياهم ، وأبدعوا على صفحاتها أجمل أشعارهم وأرق قصائدهم وأعذب أساليبهم ، ونظروا إلى المستقبل من خلال العلم والأدب والفن وتراثهم المضيء .

***

مصطفى صادق الرافعى

ولد الرافعى فى يناير عام ١٨٨٠ م فى بهتيم من قرى محافظة القليوبية ، فى منزل جده الشيخ الطوخى الذى كان يتاجر بين مصر والشام . ورأس والده المحكمة الشرعية فى طنطا ، حيث أقام فيها بقية عمره ، وفيها مات ودفن ، ومن هنا كانت طنطا مقر الرافعى وإخوته .

نشأ الرافعى نشأة علمية دينية ، وبيته بيت علم ودين ، وكان محبا للسيد البدوى ، حصل الرافعى على الشهادة الابتدائية فقط ، ولكنه تعلم الفرنسية ، وتعمق فى التراث العربى وساعده على ذلك مكتبة والده التى تحوى الكثير من الكتب الإسلامية . أصيب الرافعى بحمى أفقدته السمع وهو صغير . وساعدته هذه العلة على الانقطاع للقراءة وخاصة فى كتب التراث . عين الرافعى كاتبا بمحكمة طلخا الشرعية عام ١٨٩٩ ، ثم نقل إلى محكمة طنطا الشرعية ، وبعدها نقل الى المحكمه الاهلية فى طنطا وظل بها إلى أن توفاه الله .

كان تواضع الحظ الوظيفي للرافعى فى الوقت الذى ذاع فيه صيته كاتبا وأديبا وشاعرا يملأ الآفاق ، سببا من أسباب حساسية الرافعى الشديدة تجاه الآخرين ، وخاصة فيما يمس كرامته ، فلم يعرف عنه أنه هرع إلى رئيس مهنئا مع بقية الموظفين ، والذى كان يحدث أن الرئيس هو الذى كان يزوره فى حجرته .

تزوج الرافعى أخت الصحفى الكاتب عبدالرحمن البرقوقى ، وكانت زوجة كريمة هيأت له الجو الذى يحتاج إليه الأديب ، فلم يشغل باله بأمور البيت وأخلص لكتبه وأوراقه وقلمه ، وقد رزقه الله بعدد من الأولاد بلغ عددهم عشرة .

كان الرافعى متشددا فيما يمس دينه ' وكان يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة ، وقد استيقظ الرافعى فجر يوم الاثنين ١٠ مايو عام ١٩٣٧ فتوضأ وصلى ، وجلس يقرأ بعض آيات القرآن الكريم ، وأحس باضطراب فى

معدته ، وكان ابنه الدكتور محمد قد استيقظ فأعطاه دواء وطلب منه أن ينام ، وبعد ساعتين استيقظ الرافعى من نومه ، وفى طريقه إلى الحمام سقط فى البهو و أسلم الروح .

ترك الرافعى مجموعة كبيرة من المؤلفات منها :

- ديوان الرافعى فى ثلاثة أجزاء صدرت بين سنتى ١٩٠٣ و١٩٠٦ .
- ديوان النظرات ، صدر عام ١٩٠٨ .
- ملكة الإنشاء ، لم ينشر .
- تاريخ آداب العرب ، صدر عام ١٩١١ .
- إعجاز القرآن ، وهو الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب .
- حديث القمر ، ١٩١٢ .
- المساكين ، ١٩١٧ .
- نشيد سعد باشا زغلول .
- كتيب عن نشيده (اسلمى يامصر) الذى أهداه إلى سعد زغلول ١٩٢٣ .
- النشيد الوطنى المصرى (إلى العلا).
- رسائل الأحزان ،١٩٢٤ .
- السحاب الأحمر ، ١٩٢٤ .
- المعركة تحت راية القرآن ، ١٩٢٦ .
- على السفّود –لم يكتب عليه اسمه ووقعه بقلم إمام من أئمة الأدب العربى .
- أوراق الورد .
- وحى القلم (مجموعة مقالاته) من ١٩٣٤ – ١٩٣٧ .
- وهناك كتب أخرى لم تنشر فى حياته ، وإن نشر بعضها عقب رحيله .

وقد كتب عن الرافعى عدد كبير من الأدباء والباحثين منهم مصطفى نعمان البدرى من العراق (أعد عنه رسالة دكتوراه) ، وكمال نشأت ، ومحمد رجب البيومى ، وحسنين حسن مخلوف ، وصدرت دراساتهم فى كتب مهمة ، وقد خصصت له جزءا كبيرا فى كتابى " مدرسة البيان فى النثر الحديث " ، هذا عدا المقالات والدراسات التى كتبت عنه فى الصحف والدوريات بمناسبة انعقاد مؤتمر حوله عقدته جامعة طنطا عام ١٩٨٧ . وهناك جمعيه تحمل اسمه فى طنطا . رحمه الله رحمة واسعة.

***

العقاد .. وبعض تلاميذه

كنت ومازلت من محبى العقاد والمعجبين بشجاعته الفكرية وقدراته العقلية ، ودفاعه الواعى والمحكم عن الإسلام عقيدة وشريعة ، ولكنى أرفض أن أكون نسخة أخرى من العقاد ، فالنسخة الأولى تكفى ، والأصل يغنى عن الصورة ، لا ضرورة أن يكون هناك عقاد آخر يتوكأعلى عصا ، ويلف كوفية حول رقبته ويعتمر قبعة ويغلظ صوته وينادى آحاد الناس : يامولانا .. الضرورة أن يكون هناك " عقادون " آخرون ، يملكون الجرأة والشجاعة والفكر الخلاق والدفاع الجاد والمستمر عن هوية الأمة وكرامتها وحقها فى الحرية والإنسانية ، ولا يستسلمون لمغريات الحياة وزخارفها .. ولا يطأطئون رءوسهم لمن بيدهم الحول والطول فى واقع الناس ، وداخل المجتمع .

والعقاد إنسان ، يعتريه مايعترى البشر من كمال ونقصان ، والدفاع عنه على طول الخط ، وخاصة فى مجال البشرية المتغير ، هو نوع من التقديس الزائف ، والتألية الغبى ، وميزة العقاد أن يكون إنسانا له نقاط ضعف أما أن يكون " سوبر مان " فهذا ضد الطبيعة وضد الإنسانية ، ولا يسيء أحد لكاتب أو مفكر بقدر مايدافع عنه بالحق أو بالباطل ، وكثيرون أساءوا للعقاد من هذا المنطق ، عندما صادروا حق الآخرين وأفكارهم ولو كانت مخالفة لأفكاره وآرائه .

من المؤسف أن يفعل الشيء ذاته بعض تلامذة طه حسين ، حين أصروا أنه لم يقدم غير الشعر الجاهلى بما فيه من شطحات مخالفة للقرآن الكريم والكتب السماوية ، وزعموا أن هذه هى الحرية الفكرية التى صاغها رائدهم ، فى الوقت الذى تخلى فيه الرجل عن شطحاته وأسقطها من كتابه حتى يوم رحيله ، مما يعنى إدراكه لشططه وغلوه .

الوفاء للرواد يعنى إبراز محاسنهم والتنبيه على مثالبهم ووضعهم فى الإطار الموضوعى الذى يفرضه المنهج العلمى دون زيادة أو نقصان ، أما

الدردشة التى تتحول إلى قبلية جاهلية على طريقة قيسية ويمانية ، فهذا هو الشطط الأكبر، والإساءة الأعظم لمن نحب ونهوى .

العقاد فى حياته كان كريما على نفسه ، وعلى الآخرين أيضا ، وكسب احترام خصومه ، وأشدهم لددا .. لسبب بسيط ، أنه لم يتملق صغيرا أو كبيرا ولم ينافق من أجل منفعة ، ولم يقبل أن يضع يده فى يد من أنجبتهم وضاعة المنبت أو وضاعة السلوك ..

وأتمنى من بعض تلامذة العقاد أن يتذكروا ذلك جيدا ، لأن الرجل موقف ، والموقف رجل ، وقد كان العقاد رجلا وموقفا .

***

صاحب الضاد

صار حظ الأدباء فى أيامنا أصعب من ذى قبل مع الصحف وأجهزة الدعاية فى البلاد العربية ، ففى الوقت الذى يتركز فيه الاهتمام حول الفنانين فى مجالات الغناء والتمثيل والكرة ، لا نجد أدنى اهتمام بأعلامنا الراحلين أو الأحياء فى الأدب والفكر والثقافة ، وخاصة إذا كان هؤلاء ممن يؤثرون الانصراف إلى العمل وترك الدعاية .

وقد ودعت الحياة الأدبية والفكرية مؤخرا عددا من الكتاب والأدباء والباحثين البارزين على امتداد العالم العربى منهم العلامه عبد الله العلايلى فى لبنان (ديسمبر ١٩٩٦) والعلامة محمد بهجت الأثرى ، فى العراق قبل شهور ، والأديب محمد على مغربى ، فى السعودية قبل شهرين تقريبا ، وفى الفترة ذاتها علمت من صديقى الأديب الكبير " وديع فلسطين " بوفاة الشاعر " عبدالله يوركى حلاق " صاحب مجلة " الضاد " الحلبية السورية ، وللأسف لم نجد أى صدى لرحيل هؤلاء الأعلام فى صحافتنا وأجهزة الدعاية العربية .

وقد ولد الشاعر " عبدالله يوركى حلاق " فى حلب عام ١٩١١ م وتعلم فى مدارسها وحصل على دبلوم فى الصحافة ، واشتغل فترة بالتدريس ، ولكنه تركه إلى الأدب والصحافة وأسس مع " عبدالله يوسف شلخت " مجلة " الضاد " قبل خمسة وستين عاما تقريبا ، ومازالت تصدر حتى الآن ، وقد اشترك أحد أبنائه منذ سنوات فى إدارتها وتحريرها .

ومجلة " الضاد " من المجلات الأدبية القليلة الباقية حتى اليوم ، ويصدرها بإمكانات متواضعة ، ولكنها تؤدى دورا مهما حيث يظهر من خلالها النبض الأدبى الانسانى الذى يربط بين الأدباء دونما بحث عن مصلحة شخصية أو خدمة غايات ضيقة ، وهذه ميزة نفتقدها فى كثير من المجلات الأدبية .

وكـان صـاحب " الضـاد " حريصـا علـى إقامـة علاقـات أدبيـة وثيقـة مـع الأدبـاء العـرب كافـة مـن الأقطـار العربيـة كلهـا والاتجاهـات المختلفـة ، وقـد أتاحت لـه فرصـة عضويته فى مجلس الأمة الاتحـادى الـذى نشـأ عقب إقامـة الوحدة بين مصـر وسـورية عـام ١٩٥٨ ، التعـرف علـى معظـم أدبـاء مصـر وغيرهم فى القاهرة ، واستكتب الكثيرين منهم لمجلته .
ومن ميزات " الضاد " التى تحمد لها أنها حرصت على ربط أدباء المهجر فـى الأميـر كيتـين بـالوطن الأم ، فكانـت كتابـاتهم وأخبـارهم تشـكل جـزءا أساسـيا مـن مـادة المجلـة ، ويسـتطيع البـاحثون والمهتمـون بشـئون الأدب المهجرى أن يرجعوا إليها للاستفادة والتوثيق .
وفى السنوات الأخيرة ركز " عبد الله يوركى حلاق " على الاهتمام بحلب : المكان والزمان والبشر ، فكتب عن آثارها ودورها التاريخى ، وتحدث عن أعلامها ، وجمع مقالاته التى كان يفتتح بهـا " الضـاد " حـول " حلـب " فـى مجموعة من الكتب التى كان يرفقها هدية مع توزيع المجلة .
لقد كانت " حلب " عاصمة الشام الكبرى منذ حكمها الحمدانيون ، وارتفـع فيها صوت " المتنبى " ، منشدا روائعه وسيفياته ، وظلت درة الشام الثقافية حتى أواخر الحكم العثمانى ومجيء الاستعمار ، فتضـاءل دورهـا الثقـافى ، وخفت دورها التعليمى ، ويعد " عبدالله حلاق " من الذين أسـهموا فـى بقـاء دور حلب الثقافى ، والتبشير باستعادتها لدورها القديم وتجاوزه إلـى مستقبل أفضل .
ولاريـب أن الـدور الفـردى فـى النهضـة الأدبيـة مهم ومطلـوب ، وإن كانـت التضحيات التى يتطلبها هذا الدور كبيرة ، تجعل صـاحبها من الأبطـال فـى غيـر أوانهـم ، حيـث تتـوارى الثقافـة الجـادة ، والأدب الرفيـع ، وقـد كـان صـاحب " الضـاد " بطـلا بطريقـة " مـا " حـين بقيت مجلتـه خمسـة وستين عامـا فـى حياتـه تحـت ظـروف صـعبة ، لقـد كـان يطبـع مجلتـه فـى شكل متواضع ، وكان يوزعها خـارج حلب أو سوريا عن طريق الاشتراكات ، ويستكتب الكتاب بجهد شخصى .. ومع ذلك استمر صـدور المجلـة وتحقيق غايتها فى خدمة الأدب واللغة .
هل كـان للموهبـة دور فـي نجـاح الضـاد ؟ نعم . فقد كـان "عبد الله يـوركي حلاق" موهوبا ، وكان يقرض الشعر ، ويكتب المقالة الأدبية والبحث ، وقد خلف عددا من الآثار المهمة في هذا المجال ، منها أربعـة دواويـن منشـورة هــي : "خيــوط الغمــام " و"حصــاد الــذكريات" و"عصــير الحرمــان" و" أسديات" ، وقال الأستاذ وديع فلسطين عن شعره :" ويتميز شـعر عبد الله حلاق بالجزالة الأسلوبية والرقة في المعاني وباجتناب الألفـاظ المهجـورة أو

الدارجـة . وقـد يعيـب عليـه النقـاد اسـتغراقه فـي المناسـبات ورده علـيهم أن الشاعر لا ينفصل عن عصره أو أحداثه " .
وفي مجال الدراسات الأدبية ترجم حلاق فـي مجموعـة مـن الكتـب لعـدد مـن المعاصرين ، منها :
"أعلام العرب فـي القوميـة والأدب" ، و"عشـت مـع هؤلاء الأعـلام" ، و" قطاف الخماسين" و" والزفرات" و"حلبيـات" و" الحلبيـون فـي المهجـر" ، ولـه رواية بعنوان "المنذر ملك الحيرة" ، بالاضافة إلـى ثلاثين مخطوطـة لـم تنشر بعد .
وقد أدركت بعض الهيئات العلمية والأدبية قيمة الرجل فـي حياتـه ، فكرمتـه قبـل رحيلـه وأقامـت لـه حفـلات تكـريم ، ومنحتـه أوسـمة تقـدير ، فمثلـه مـن الأدبـاء يسـتحقون التكـريم والتقـدير ، فضـلا عـن التنـاول والتعريـف بوصـفه قدوة في العصامية والإخلاص والمثابرة .

***

ثروت أباظة كما عرفته

قبل ثلاثين عاما من رحيله ؛ عرفت "ثروت أباظة" (١٩٢٧ – ٢٠٠٢ م) ، استقبلني لأول مرة في مكتبه بنادي القصة ، وتبادلنا حوارا وديا حول الأدب والرواية والأدباء وأهداني أحد كتبه ، وتوثقت علاقتي به منذ ذلك الحين ونشرت لديه بعض كتاباتي في مجلة " الاذاعة والتليفزيون" ، ثم في الصفحة الأدبية بالأهرام ، فضلا عن مجلة "القصة " .

وتناولت بعض إنتاجه الأدبي بالدراسة والنقد ، فكتبت عن روايته "ابن عمار" طويلا في إطار بحثي التطبيقي عن الرواية التاريخية في أدبنا المعاصر ، وعرضت لبعض رواياته الأخرى ومجموعاته القصصية .

وأجريت معه حوارين أدبيين ، نشرت أحدهما في "الثقافة الأسبوعية" ، أما الأخر ، فلا أذكر مكان نشره الآن .

ويمكن أن نشير إلى قضية أساسية شغلته فيما أبدع روائيا وكتب صحفيا ، وهي قضية العناصر الانتهازية المتسلقة التي تنبت من أصل متواضع وتسعى بالوصولية والنفاق إلى مناصب رفيعة أو مراكز عليا ، فتنسى ماضيها ، وتمارس سلوكا استعلائيا كريها تتبدى مضاعفاته في إصابة الآخرين – وخاصة من أحسنوا إليهم وساعدوهم – بالأذى والألم .

نستطيع أن نطالع ملامح هذه القضية في روايته التاريخية الوحيدة "ابن عمار" حتى أحدث روايته ، بل إننا نستطيع القول إن أثر هذه القضية امتد إلى كتاباته الصحفية بطريقة وأخرى .

ولا شك أن الذين شاهدوا الفيلم المشهور المأخوذ عن قصته "شيء من الخوف " يدركون أن "عتريس " الذي سعى للاستحواذ على فؤاده - بعيدا عن التأويل الرمزي – هو نتاج تربية متواضعة ، أفضت إلى صعوده نحو قمة الإجرام والطغيان في القرية البائسة الفقيرة .. وغالبا ما تكون مصائر الشخصيات الوصولية الانتهازية لديه بشعة وصاعقة ، وهو ما يتسق مع منهج الكاتب في مواجهة الشر والانحطاط .

يقينـي أن إبـداع الكاتـب - ولـيس كتاباتـه المباشـرة – أكثـر تعبيـرا وأكثـر تصويرا لحقيقة رؤيته وأفكاره ، بل هو أقرب إلى استبطان طبيعته ونفسيته .

وإبـداع "ثـروت أباظـة" يكشـف عـن طبيعتـه ونفسـيته وهـي طبيعـة فطريـة بسيطة ، ونفسية نقيـة صـافية ، ويتمثـل ذلـك فـي اسـتدعاء مـا يلائـم الطبيعـة الفطرية والنفسية النقية في رواياته وقصصه من بيئـة وشخوص وأحداث ، مما يحتاج إلى تفصيل لا تحتمله المناسبة .

بيد أن "ثروت اباظة" فـي سلوكه الإنسـاني مـع الكتـاب والأدبـاء وغيـرهم ؛ كان يعبر عن طبيعته ونفسيته دون تزييف ودون رتوش ، فكان ينطلق فيما يعتقد ويؤمن ؛ صريحا وواضحا إلى درجـة الحدة والغضب أحيانـا ، ولكنـه يعود إلى طبيعته الوديعـة الهادئـة بعد أن يفـرغ شـحنته الانفعاليـة ، إنـه يبـدو مثل طفل بريء تضحكه حادثة بسيطة وتغضبه حادثة بسيطة أيضا ، ويظل الطفل في داخله بريئا نقيا ، يضحك ويغضب دون أن يحمل ضغينة أو حقدا ، أو يمارس مكرا وخداعا .

حكـى مـن كتبـوا عنـه فـي الأيـام الماضـية عقـب وفاتـه فـي ١٣ /٢٠٠٢/٣ بعض مواقفه النبيلة مع مـن أسـاءوا اليـه أو اختلفـوا فكريـا معـه ، وقـد رأيـت بنفسي أكثر من حالة بدا فيهـا الإنسـان داخـل ثـروت أباظـة أكبـر مـن الكاتـب ،مع أنه كـان يملك فرصة الانتقام ولو بالصمت ، كمـا يفعل بعض خصـومه غالبـا ، ولكـن طبيعتـه البسـيطة أو فطرتـه النقيـة تـأبى عليـه ، أذكـر أنـه فتح مجلـة " الإذاعـة" أمـام خصـوم رأي وفكـر ، ولـم يـرد كاتبـا أو شـاعرا مـن مخالفيه عن صفحة " الأدب" في "الأهرام" .. وأذكر أننـي كنت أجلس فـي مكتبه ذات مرة ، وكان يطلع باستمرار على بعض كتاباتي فقال لي : حلمـي ، أنت من جماعة كذا؟ فضحكت ، وقلت : هذا شرف لا أدعيـه ، وتهمـة لا أنكرها ! ففغر فاه دهشة وكأنه يتعجب من إجـابتي ، فأردفت ، تعلـم أننـي لا أنتمي إلى جماعة ولا تنظيم لسبب بسيط وهو أنني كاتب ، والكاتـب جماعـة وحدة ، وتنظيم وحدة ، وضحكنا .

كـان متـدفقا فـي الكتابـة ، لا يكتـب مسـودة لمقالاتـه ، حتـى رواياتـه يكتبهـا مباشرة معتمدا على التخطيط الذي فـي ذهنـه ، وقـد سـاعده علـى ذلـك وعيـه المبكـر باللغـة وتراثهـا ، وهـو الـوعي الـذي وصـل بـه إلـى درجـة العشـق بشـعرها ونثرهـا ، ومحاولتـه أن يقتـرب مـن مدرسـة البيـان التـي كـان مـن أعلامها : المنفلوطي والرافعي والزيات والبشري ، يبهرون جيلـه بأسـاليبهم وبلاغتهم ، فكان يحرص علـى انتقـاء اللفظـة والجملـة والعبـارة ، ويستشـهد بمحفوظاته من الشعر والنثر ، وكان شبه حافظ لديوان شوقي .. ويكثـر مـن

ترديد أبياته ، لذا جاء أسلوبه عربيا فصيحا ، ذا ديباجة مشرقة ، خالية من الركاكة والضعف بعيدا عن أخطاء النحو والاشتقاق والتراكيب ، ولم يجد غضاضة أبدا في ترك مقالاته لمن يجلس معه علّه يجد فيها بعض الأخطاء ، وقد اقترحت عليه في أكثر من مرة بعض التعديلات وأخذ بها عن رضا واقتناع ، وكان يناقشني أحيانا في بعض الجمل التي أكتبها ونصل معا إلى الراي السديد ، وهو ما كان يفعله أيضا مع قصائد الشعراء ، حيث كان لا يطمئن إلى بعضهم في مجال صحة العروض ، ويضطر أحيانا أن يرسل الحاج "صبري – سكرتيره الخاص – الى الأستاذ "عبد المنعم قنديل " – رحمه الله في جريدة "الأخبار" المجاورة كي يصحح الكسور أو العيوب العروضية إن وجدت .

وبعيدا عن المعارك السياسية التي خاضها بقلمه حادا وقاسيا في بعض الأحيان ، يبقى منه جانب مهعم إلى جانب الإبداع الروائي القصصي والنقدي ، هو الجانب الإسلامي ، فقد كان من القلائل الذين حرصوا في ظروف متباينة على الجهر بكلمة الإسلام والحديث عن قيم الإسلام والفخر بتاريخ الإسلام ، ولعل الله سبحانه أراد ان يختم حياته بختام حسن ، حيث جعل أخر مقالاته في الأهرام – نشر يوم وفاته – حول الرسول صلى الله عليه وسلم بعنوان "نفحات نبوية" يتحدث فيه عن بشرية النبي صلى الله عليه وسلم الذي أوحي إليه القران الكريم .. أكبر معجزة وأخلد المعجزات رحم الله ثروت اباظة .

***

لويس عوض : الأسطورة والحقيقة

تحت هذا العنوان ، في أواسط التسعينيات ، أخرجت كتابا عن الكاتب الراحل " لويس عوض " ، الذي اكتسب شهرته من الإشراف على القسم الأدبي في جريدة الأهرام " طوال فترة الستينيات ، فى ظل رئاسة " هيكل " ، وعرف الناس يومها ، - ربما لأول مرة – مقالات أدبية يكتبها لويس تستغرق صفحة كاملة ، تمثل فصولا من كتاب ، أو فصولا يجمعها في كتاب ، وتهافت الكتّاب والنقاد والشعراء للنشر فى صفحات " الأهرام " الأدبية يوم الجمعة من كل أسبوع ، حيث كانت الجريدة توزع فى ذلك اليوم أضعاف ما توزعه فى الأيام الأخرى ، وأضعاف ما توزعه الصحف الأخرى جميعا ، فقد كان الناس ينتظرون مقال " هيكل " الأسبوعى ، أو ماينشر فى الصفحة الأولى من أخبار يحررها " المحرر السياسى " وتبدأ بجملة " علم المحرر السياسى للأهرام أن ... " وهو ماكان ينفرد به الأهرام دون بقية الصحف بحكم العلاقة الوثيقة بين رئيس النظام ورئيس تحرير الأهرام .

إذا كانت الصفحات الأدبية للأهرام فى ذلك الحين منبرا يحلم به الأدباء والشعراء ، واكتسب " لويس عوض " من خلالها شهرة كبيرة ، جعلته مركز قوة أدبى ، وصارت رسائله المفتوحة على صفحات " الأهرام " إلى وزراء الثقافة مؤثرة وفعالة ، وأدت عام ١٩٦٥ إلى إغلاق معظم مجلات وزارة الثقافة التى كانت تصدر فى ذلك الوقت بحجة أنها مجلات رجعية أو أنها ضعيفة التوزيع ! وبالطبع فإن " لويس عوض " أمام تهافت الأدباء والشعراء على صفحاته الأدبية لم ينشر إلا لمن يرضى عنهم ، ولم يكتب إلا عمن رضي عنهم (لم يكنب عن صلاح جاهين مثلا مع أنه كان يعمل معه في الأهرام ، وكان يكتب بالعامية التي كان يدعو إليها لويس !) .

شهرة لويس في الأهرام ؛ ثم هيمنته على الواقع الثقافي من خلال تلاميذه وأنصاره في المطبوعات الأخرى ، جعلت منه أسطورة خرافية شبه مقدسة ، ويصعب أن يتناوله أحد بالنقد أو التحليل العلمي المحايد ، فضلا

عن التناول العام مثل بقية الكتاب . وسطع نجمه بعد أن قهر خصومه الرجعيين أو المحافظين كما كان يسميهم ، وأعلن عن شماتته الكبرى بعد إغلاق مجلات وزارة الثقافة ، وتعليق بعض الكتاب ممن يعاديهم فكريا على أعواد المشانق أو دخولهم السجن في محاكمات عسكرية ظالمة في أغسطس ١٩٦٥م ، وعبر عن ذلك بعبارة شهيرة " زوال الغمة " في رسالته إلى وزير ثقافة كان قد عين حديثا آنئذ ، ولعله سليمان حزين !

وعندما عملت بالجامعة عرفت شقيقه " رمسيس " حين كان يأتى إلى الكلية التى أنتمى إليها منتدبا ليحاضر فى قسم اللغة الإنجليزية ، وحضرت معه أحد المؤتمرات ، فوجدت فيه رجلا وديعا مهذبا ، يفسح صدره للآراء المخالفة ، ويتحدث عن علم ووعى ، ثم قرأت بعض كتبه فوجدت فيه إخلاص الباحث وهمة العالم المتواضع ، على العكس تماما من لويس وكتاباته التى تميل فى معظمها إلى السرعة ، وعدم التدقيق فضلا عن مصادمة الأمه فى مقوماتها ومكوناتها دون مراعاة لواقع اجتماعى أو سياسى . ناهيك عن ضيقة بالآراء المخالفة له وعده تعصبا ضده !

بدا لى أن أكتب عن الرجل الذى يدعو إلى حرية الرأى والاشتراكية ، ولا يسمح لغيره أو لرأى مخالف بالظهور ، ولا يعيش عيشة الاشتراكيين وعذاباتهم فى القرى والأحياء الفقيرة ، فكتبت بعض المقالات القصيرة المتفرقة فى السبعينيات كان مردودها سلبيا ، وعندما صدرت مذكراته " أوراق العمر " ورأيت فيها كلاما تجاوز المألوف والمحتمل ، تحمست لتأليف كتابى عنه ، وحرصت فى عملى أن يكون كلامى موثقا ، بعيدا عن الانفعال والعاطفة ، وأخرجته فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير ، كل جملة فيه عليها دليل .

المفارقة ان الصحف القومية تجاهلته تماما ، مع أنى بعثت بنسخ منه إلى من يعنيهم الأمر من محررى الثقافة والأدب والفكر ، فضلا عن كبار الكتاب والأدباء لم يظفر كتابى بسطرين اثنين على عمود فى صفحة من الصفحات ! ثم ظهرت كتابات معاكسة تثنى على لويس وتنال من خصومه " السلفيين الظلاميين المتحجرين " إلى آخر الصفات البذيئة التى يرصها البعض فى مثل هذه المناسبات .

تجرأ أحد الادباء وكتب فى إحدى المجلات القومية عرضا للكتاب ، فإذا برئيس تحرير المجلة يشير فى أسفله إلى أن عرض الكتاب تم بألفاظ المؤلف وعباراته ، وأن المجله تفتح المجال للرد والتعليق !! وكأن المجلة ارتكبت جرما فظيعا وإثما عظيما ، ثم أغلق الباب فلم ينشر ردا ، ولم يعرض تعقيبا !

والاغرب من هذا كله أن البعض يصر على أن كل من عارض " لويس عوض " مهاجم ومتحامل ووراءه مؤامرة ، حتى " رجاء النقاش " الذى يثنى دوما عليه وضعوه مع كتابه " الانعزاليون فى مصر " داخل هذه الدائرة !

تمنيت من الذين " يقدسون " لويس عوض أن يردوا علميا على القضايا المثارة حوله ، ولو بنقض قضية واحدة نقضا صحيحا ، ولكنهم آثروا أن يسيروا على نهج " معبودهم " الذى وصفوه بأنه كان لا يحفل بالرد على أحد أو يعيره اهتماما ، بل كان يتجاهل مخالفيه " لأنه لم يكن يجد فى أحد منهم ندا له يرتفع بعلمه وثقافته إلى مستوى قامته فى العلم والثقافة " ، وهذا منهج غريب وعجيب ، لا يعمل به عالم حقيقى أو مثقف كبير ، فالعالم الحقيقى متواضع ، والمثقف الكبير أكثر تواضعا ، والعلم يقوم على المنطق والحجة والدليل ، ولأن لويس لم يكن يملك شيئا منها فى موضوع أبى العلاء المعري مثلا ، فلم يستطع أن يرد على محمود محمد شاكر ، الذى وصفه بأنه " خطاف جرئ"!!

إن العالم الحقيقى لايخشى الحوار ولا يحتمى بالهجاء ، ودعونا نتعامل مع لويس عوض الحقيقة ، وليس لويس عوض الاسطورة !

***

حسين مجيب المصرى : أستاذٌ عَلَمٌ

من حين لآخر ، يفاجأ القارئ المهتم بشئون الأدب والفكر والثقافة ، أن الأوساط المعنية فى عاصمة ما تحتفل بأديب أو شاعر أو فنان ، لم يسمع عنه أحد غير أصدقائه المحيطين به ، وهم فى الغالب قلة تعد على اصابع اليدين ، وقد يبدو الأمر غير مثير للانتباه ، فالمحتفون والمحتفى به أحرار فيما يفعلون ، طالما ينفقون على حفلاتهم من جيوبهم الخاصة .. ولكن المسأله تثير الانتباه والاهتمام حينما يكون المحتفى به لا يملك موهبة حقيقية أو خبرة عميقة فى المجال الذى يكتب فيه أو يمارس الفن من خلاله ، وعندما يكون الاحتفال أو " الاحتفالية " – كما يسمونها – على حساب دافع الضرائب ، هنا يصبح الأمر غير طبيعى ، ويثير العديد من التساؤلات ، ويؤكد على أن هناك خللا ما فى حياتنا الأدبية والثقافية بوجه عام .

إن كثيرا من كتابنا وأدبائنا وباحثينا الكبار قدرا أو مقاما ، والذين أنفقوا كل مايملكون : مالا وجهدا وعافية ووقتا من أجل الكلمة : إبداعا وترجمة وتاليفا ومقارنة ، لم يحظوا بمثل مايحظى به أولئك الفقراء فى الموهبة والفن والثقافة .. وذنبهم الأول والأخير ، أنهم لايجيدون فن العلاقات العامة ، الذى يجعل ذكرهم مرفوعا فى الصحف والمجلات وأجهزة الدعاية المسموعة والمرئية .. ويقترب من المؤتمرات والندوات والجوائز .

فن " العلاقات العامة " إذا ، هو الذى يحرك فى الغالب نحو الشهرة ومضاعفاتها ، وهو فن يفرض على صاحبه الكثير من التنازلات ، ويوجب عليه الانتماء إلى " السلطة الأدبية " المهيمنه ايا كان لونها أو اتجاهها ، حتى لو خالفت المبادئ والقيم والأعراف الصالحة ..

قبل مدة ، كُتب ونُشر أن هيئة رسمية قررت أن تقيم احتفالية لرسام صحفى بمناسبة بلوغه سن التقاعد . المذكور متواضع القيمة فنيا ، ولا أستطيع الحديث عن سلوكه الشخصى لأسباب موضوعية ، ولكن المحتفين به أغدقوا عليه من الصفات مايجعله فى خانة " العظماء " غير المسبوقين ! المفارقة أنه لم يحضر " الاحتفالية " ، لأنه كان مشغولا بأمر أعف عن ذكره .

قبل مدة تلقيت رسالة كريمة من أحد اعلامنـا المعاصـرين . وأصفه بـالعَلم ، لأن الأمه الإسلامية تفخر به كاتبا وشـاعرا وباحثـا ورائـدا فـى ميدان مهم ، فضلا عن عشرات الكتب والدواوين والترجمات ، ثم عضـوية مجمـع اللغـه العربية ، والتعليم فى الجامعات .

فـى الرسـاله الكريمـة فقـرات مـؤثرة توقفت عنـدها طـويلا ، والتفـت إلـى مايجرى على الساحة الادبية والثقافية ، وقارنت ، وحزنت ، وتألمت ...

يقـول الأسـتاذ العلـم فـى رسـالته : " ولا يسـعنى إلا أن أشـكر لـك تكرمـك بالكتابة إلى وتذكرك لى ، فان مثل هذا هو كل دنياى . لقد ذهب بصرى فأنا أملى ما أكتب ، وأكلف غيرى بالقراءة لى ، والحمد لله على حال من الحـال " !

تأمل ما يقوله :" فإن مثل هذا هو كل دنياى " ؟.. بعد أن نيف الرجل علـى ثمـانين عامـا ، صـار كـل مايتمنـاه أن يكتـب إليـه تلميذ مـن تلامذتـه الـذين اسـتفادوا منــه علــى البعـد .. بينمــا الحيـاة الأدبيــة مشـغولة بتكـريم بعـض المنتسبين إليها ممن لا يقيمون عبارة سليمة ، ولا يمثلون قدوة تحتذى ، ولـم يقرأ لهم غير الاصدقاء ؟

إن الاسـتاذ العَلـم ، هـو الـدكتور " حسـين مجيـب المصـرى " الـذى أجـاد الفارسـية والتركيـة وعشـر لغـات أخـرى، ونظـم بهـا ، وكتـب مـن خلالهـا دراسات مقارنة رائدة ، ومنحته الباكستان " وسام الجدارة " عـام ١٩٨٨ ، ونـال الـدكتوراه الفخريـة مـن جامعـة مرمـرة باسـتانبول (عـام ١٩٩٥)، ويتوقـع أن ينـال مثلهـا مـن جمهوريـة قازاقسـتان بعـد أن تـرجم الـى الشـعر العربى ديوان شاعرها الأشهر " أباى "

تمنيت لو أن الأديب الكبير الأستاذ " وديع فلسطين " كتب عن الرجل حديثا من أحاديثه المستطردة ، فهو من أقرب الناس اليه ، على مدى عمره المديد إن شاء الله ، كى تتعرف الأجيال الجديدة على بعض أعلامنا المجاهدين فـى ميدان الكلمة ، لم تعرف الأضواء طريقها إليهم ، لأنهم انصرفوا إلـى العمل وحده ، ولم يتقنوا فن العلاقات العامة " !

***

(توفى الأستاذ العَلم بعد كتابة هذا المقال بسنوات قليلـة ، وكتبتُ عنـه أكثـر من مقالة مسهبة – رحمه الله) .

القسم الثالث
قضايا ثقافية

الشاعر الاسرائيلى الجميل جدا
ضرورات الحكومات .. وفضائح المثقفين ؟!

يبدو – والله أعلم – أن تجليات " العولمة " أو تحويل العالم إلى ملعب تركض فيه حكومات العالم القوية ، وصلت إلى بلادنا مبكرا ، وفى عالم الثقافة والأدب تحديدا ، فقد رأينا من يطلق عليهم شعراء ، يقررون أن الأوطان لا قيمة لها ،وأن عصر الحروب والعدوات قد انتهى ، وأن اغتصاب الأرض والعرض لا معنى له ، وأن المعنى ذاته بكل مايحمله من قيم وأخلاق وحضارة وتاريخ وجغرافيا وفكر وثقافة لم يعد له وجود ، وأنه سقط إلى الأبد ، وأن علينا بعد ذلك أن نلحق بالأقوياء ولو كانوا أشرارا وطغاة ومعتدين ! بل ونشارك جلادينا أفراحهم باحتلالنا وإذلالنا كما فعل البعض احتفالا بحملة نابليون على مصر .

هذا ما فهمته من التحقيق الذى نشرته المساء الادبى فى ١٩٩٩/٨/٩ بمناسبة ما أطلق عليه المهرجان الثانى لشعراء البحر الأبيض المتوسط فى مدينة " لوديف " الفرنسية ، الذى انعقد هناك مؤخرا ، وحضره عدد من الشعراء المصريين مع شعراء من دول العالم بعضهم ينتمى إلى الكيان الصهيونى الغاصب فى فلسطين المحتلة .

بعض الشعراء المصريين قال إنه قاطع شعراء الكيان الغاصب ، ولم يقابلهم ولم يشارك فى الأمسيات التى ألقوا فيها قصائدهم ، مع أن رأى هذا البعض أن من واجبنا ألا نترك الساحة خالية لينفرد بها شعراء الكيان الغاصب ، وكأننا حقا نملأ كل الساحات فلم تبق غير ساحة الشعر هى الخالية !

البعض الآخر تكلم على راحته ، وتخلى عن كل المحاذير القومية والوطنية فضلا عن الدينية ، ورأى أن الأمر فى لقاء الصهاينة المعتدين لا يشكل مشكلة على الإطلاق ، ولا يمثل قلقا لهم ولا لغيرهم ، من دول البحر المتوسط ، ومن حقهم أن يشاركوا فى المهرجانات واللقاءات ، ولا غضاضة فى التعرف عليهم ، وبيننا وبينهم معاهدة سلام منذ عشرين عاما ، ولا صراع الآن معهم ، ومن أراد أن يدخل صراعا فليدخل ..

ووصل الأمر إلى أن واحدة من المشاركات فى المهرجان وصفت شاعرا صهيونيا تعرفت عليه بأنه شاعر جميل جدا ! ولا أدرى تماما ماذا تقصد بهذا الوصف !! أهو الوصف الروحى الذى يعبر عن جمال خلقه وسلوكه ومشاعره وإنسانيته وليس له منها شيء ، أم هو الوصف الحسى الذى يتمثل فى شكله وطوله وقده ولونه ؟ ثم إن الفريق الأخير يشيد ببعض الشعراء الصهاينه ويرى أنهم يهتمون بمصير الدولة الديمقراطية فى فلسطين أكثر مما يفعل ياسر عرفات وجماعته !!.. وفى الوقت ذاته ؛ فإن هذا الفريق يحمل على المعارضين لتوجهه ويصفهم بالتجار والغوغائية والتفاهة وفئران الجحور ، ويعلن فى ثقة أنه لم يكن مهتما بالتعرف على شعراء عرب !!

والفجيعة فيما يقوله هؤلاء معروفة ، ولا أجد وصفا منا سبا لها ، أو أنى أجده ولا أستطيع الإفصاح عنه ، لأن ذهولى أكبر مما يتصوره بعض القراء ، وما كنت أود أن أعيش حتى هذا اليوم الذى أرى من يفترض فيه أنه يشكل هوية الأمة ، ويؤصّل عناصر المقاومة ؛ يدعو إلى الانهيار والاستسلام والانبطاح !

إن تاريخ الإنسانية والأمم والشعوب يقوم منذ قابيل وهابيل ، على صراعات بين قوى وضعيف ، ومعتد وصاحب حق ، وطامع ومطموع فيه ، ولم يحسم الصراع إلا القوة التى يملكها طرف دون الآخر ، وقد تكون القوة مادية أو معنوية .. ولكن يبقى صاحب الحق مطالبا بحقه ومصرا عليه ومستردا له حين تتوفر له أسباب القوة والغلب ، يساعده فى ذلك شعور قومى عام يصنعه المثقفون وأصحاب الرأى تخصيبا لذاكرة الأمة وإشعالا لها حتى تتهيأ الفرصة المناسبة ، وفى التاريخ القريب أمثله عديدة منها ماجرى لليابان والمانيا الغربية عقب الحرب العالمية الثانية ، فقد استسلمت الدولتان بعد هزيمة مريرة ، ووقعت كل منهما وثيقة استسلام مهين ، ولكن ظلت الذاكرة القومية بفضل الكتاب والشعراء والفنانين تنبض بالأمانى القومية ، وتكرس الهوية الذاتية حتى استسلم لهما المحتلون استسلاما عمليا فى مجالات عديدة مثل الاقتصاد والصناعة والعلم والاختراع ...

لقد احتل الصهاينه أرض فلسطين وأراضى عربية أخرى ، واقتضت الضرورة لدى بعض الحكومات العربية أن توقع اتفاقيات مجحفة مع المحتلين ، ومازالت قوات الاحتلال تربض على أرض عربية ، وتكبل شعوبا عربية بالحديد والنار ، فهل يعنى ذلك أن تسقط الحواجز والحدود بين مثقفينا ومثقفيهم ؟ وهل يقتضى ماجرى أن نتغنى بجمالهم المفقود ؟ وهل معنى الحرية أن أفضل التعامل مع قاتلى على شقيقى ؟ وهل صحيح

حقا أن الشعراء الصهاينة يهتمون بمصير الدولة الفلسطينية أكثر مما يفعل عرفات وجماعته ؟ وهل المشاركة فى مؤتمرات مع الأعداء تعنى تجليا من تجليات الحرية ؟
إن الأسئلة كثيرة ، ولكن القوم يتغافلون فى حمأة ذاتيتهم المقيته سلوكيا وأدبيا ، عن خطر داهم ، يتناسونه بحجة عدم البحث عن جنسية الآخر .. فى الوقت الذى يقيم فيه هذا الآخر بنيانه الثقافى ووجوده الفكرى على " العنصرية " بكل تجلياتها العدوانية الوحشية البغيضة ... إن العنصرية دين يتلوه فى كتابة المقدس ، وصلواته اليومية ، وتطبيقاته العملية فى السلوك اليومى ، تحت دعوى أنه " شعب الله المختار " وما يحدث لأشقائنا فى فلسطين ولبنان والجولان يوميا خير برهان على العنصرية العدوانية الوحشية البغيضة .
لقد تأملت المجموعات التى تدعى إلى المؤتمرات الغربية وتلتقى بأهل الغرب على مدى العقود الأخيرة ، فوجدت أن معظم أفرادها ينتمون إلى النوع الذى يصادم الامة فى معتقداتها وتصوراتها ، ويوالى الغرب فكرا وتطبيقا ، ويعيش لنفسه أكثر مما يعيش لوطنه فلم يؤثر عن هؤلاء الأفراد فى أغلبيتهم الساحقة موقف ضد الأعداء أو المستبدين الذين ينكلون بشعوب الأمة ، ولم يدفعوا ثمنا قليلا أو كثيرا لموقف مشرف أو موقف جميل ، ثم إن معظمهم فى نهاية الأمر لايملك موهبة ساطعه بقدر مايملك جرأة فى ميدان العلاقات العامة تحقق له بعض المكاسب والمنافع نظير طعن الوطن والأمة والدين جميعا !
إذا كانت الحكومات تفرض عليها الظروف سلوكا أو موقفا ما ، فما هى الظروف التى تحول بعض المثقفين إلى سماسرة لبيع الأوطان وتدمير القيم وتجميل وجوه الأعداء .

***

وظيفة الشعر فى عصور الضعف

منذ فترة السبعينيات فى القرن الماضى ، بدأت تظهر حركات شعرية عربية ، تتجاهل الواقع الإنسانى للمجتمع العربى والإسلامى ، وتحصر نفسها فى دائرة الذات والغموض ، وتتخلى فى الوقت نفسه عن التقاليد الأدبية والفنية التى ورثها الأدباء والشعراء على مدى قرون طويلة ، وكان المسوغ عند أصحاب هذه الحركات هو ضرورة التغيير والتطوير والتجديد .

الحركات الشعرية الجديدة وضعت سدودا بينها وبين قضايا الأمة وآلامها وأحلامها أو آمالها ، وصارت بعض النماذج تشبه الألغاز والفوازير التى لا يفقه منها القارئ المثقف – فضلا عن القارئ العادى – معنى أو مضمونا، ولا يجد فيها موسيقى الشعر أو إيقاعه الذى تعودت عليه الأذن العربية ، ثم هناك من هذه الحركات من واصل الإيغال فى مصادمة الوجدان والعقل فى المجتمع العربى ، فركز على الموضوعات التى تعبر عن الشبق الجنسى ، مصحوبة بالتجديف وازدراء الخالق سبحانه والعقيدة بأسرها ، وصار هناك مايعرف بشعر " الجسد " ، وكان تفسير دعاته لهذا الاتجاه الشاذ ، بأن الشاعر لم يعد يملك غير جسده فى جو يحاصره فيه المجتمع المادى بقمعه وطغيانه وعلاقاته غير الإنسانية !!

ولا ريب أن هذه الحركات الجديدة ، كانت صدى لحركات مماثلة ظهرت فى الغرب ، وكانت نتيجة أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية حقيقية هناك ، فالمجتمعات الغربية عانت من حروب كثيرة مهلكة ومدمرة خاصة فى الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، فضلا عن سيادة النمط المادى الشرس الذى أسقط قيم المودة والرحمة والتعاطف الإنسانى ، مع سقوط القيم الروحية أو التخلى عنها فى هذه المجتمعات ، بحث صارت العقائد الدينية هناك مجرد طقوس وشعائر مظهرية ، لا تصل الى أعماق الضمائر والقلوب .

وبإيجاز شديد ، فإن الحركات الشعرية الجديدة فى المجتمع العربى كانت تمثلا مشوها لما عرف بنظرية الفن للفن ، وأفرزت نماذج غريبة وعشوائية بعيدة عن الفن والمجتمع جميعا ، ومع ذلك وجدت من يروج لها ويدافع عنها ، بدعوى التجديد والحداثة تارة ، ودعوى مقاومة التخلف والجمود تارة أخرى ، وكانت هنا لك دعوى تتحدث عن مقاومة الأصولية والظلامية بكسر " التابوهات " أو المحرمات ، من خلال تلك النماذج الجديدة التى تتكئ على الغموض والذاتية ، وتحطيم اللغة أو تفجيرها ، والضرب عرض الحائط بالتقاليد الأدبية والأسس الفنية ..

فى كل الأحوال ، فإن أصحاب هذا التوجه على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم ، اتفقوا على شيء واحد ، هو تجاهل قضايا الأمة القومية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، فى الوقت الذى يوظف فيه الأدباء والشعراء الصهاينة ، الفن بكل أشكاله وألوانه بدءا من الشعر والقصة حتى السينما والمسرح والرسم لخدمة الصهيونية وأهدافها وغاياتها ، وتصوير اليهودى فى حالات انتصاره وتفوقه ، وكفاحه وصموده ، واضطهاده وعذابه ، فى صورة " السوبر مان " الذى يحقد عليه البشر الأغيار الذين هم أقل منه منزلة ومكانة !

بدأ الناس فى مجتمعاتنا العربية يفقدون ثقتهم بما يطالعون من أدب ، ومن شعر لا يعبر عنهم ولا يروقهم ، وكام ضعف هذه المجتمعات يرافقه ضعف الفنون أيضا ، وسمعنا من يصيح أن عصر الشعر قد انتهى ، وأن عصر النثر قد بدأ : قصيدة النثر – الرواية – المسرح - ...

ولكن الأحداث التى جرت فى فلسطين طوال السنتين الأخيرتين مذ بدأ القرن الحادي والعشرون ؛ أكدت وظيفة الشعر مرة أخرى ، وأثبتت أن عصر الشعر لم ينته بعد ، وأن الشاعر الموهوب الذى يلتقى مع نبض الأمة ومشاعرها يستطيع بحق أن يحرك القلوب والأفئدة ، وأن يجذب الانتباه لتتفاعل الأمة فى الاتجاه الذى يوقظها ويُنهضها ويدفعها إلى السير فى الاتجاه الصحيح .

كتب الشاعر السعودى " غازى القصيبى " قصيدةة بعنوان " الشهداء " يرثى فيها الاستشهادية " آيات الأخرس " التى فجرت نفسها فى ٢٩/ ٣ / ٢٠٠٢ فى مجموعة من المستعمرين الصهاينة فى فلسطين المحتلة ، فقتلت بعضهم وجرحت بعضهم الآخر .

القصيدة كانت تعبيرا مباشرا عن مشاعر الأمة وأحاسيسها تجاه الفتاة الاستشهادية ، وتجاه الواقع المأساوى فى فلسطين المحتلة ، وتجاه الواقع العربى المتردى المليء بالهوان والمذلة . تجاوب الناس مع القصيدة

وكلماتها فى كل مكان وصلت إليه ، إنها أثرت فى صفوف الصهاينة الذين شنوا حملة ضارية عبر الصحف والتلفزة والشبكة الأليكترونية ، ضد الشاعر الذى كان عميدا للسفراء فى العاصمة البريطانية لندن ، وسفيرا للمملكة العربية السعودية ، مما أدى إلى مغادرته موقعه وتعيينه وزيرا للمياه فى الرياض .

وظيفة الشعر اجتماعية قبل أن تكون فنية ، ولن تتحقق هذه الوظيفة إلا اذا كان الشاعر موهوبا بحق يملك أسس الفن ، والقدرة على التعبير ، وهو مايتفق مع مفهوم الأدب الاسلامى فى تحقيق المعادلة بين الغاية الانسانية والمتعة الفنية ، ولعل هذا مايفسر ذيوع قصيدة " الشهداء " وتأثيرها على الجانبين العربى والصهيونى ، لنتأمل مطلع القصيدة الذى يمجد الشهداء :

يشهد الله أنكم شهداء ... يشهد الأنبياء والأولياء
متم كى تعز كلمة ربى ... فى ربوع أعزها الإسراء
انتحرتم ؟ نحن الذين انتحرنا ... بحياة أمواتها الأحياء!

مقاطع القصيدة هجاء للعجز العربى والصمت العربى والذل العربى ، وإشادة ببطولة الاستشهاديين ، وبشارة لهم بما ينتظرهم فى الجنان التى تفتح أبوابها لهم :

قل لآيات .. ياعروس العوالى ... كل حسن لمقلتيك الفداء
حين يخصى الفحول .. صفوة قومى ... .. تتصدى للمجرم الحسناء
فتحت بابها الجنان .. وحيت . ... . وتلقت فاطم الزهراء

إن قصيدة صادقة نابعة من إحساس حقيقى يكتبها شاعر موهوب كفيلة بتحريك الدماء فى شرايين جسم مجمّد ، وبث روح الجهاد والأمل فى أوصاله .. وهو ما يعنى سقوط الحركات الشعرية التى توظف الغموض وتنأى عن المجتمع وقضاياه .

***

طه حسين : الاسكندرية مدينة يونانية !

ربما كانت معاهدة ١٩٣٦ التى وقعتها مصر مع بريطانيا لتحقيق قدر من الاستقلال الوطنى ، بداية لاشتعال الصراع حول هوية مصر ، وعلاقتها بالغرب ، ولعل طه حسين ، ومن بعده سلامه موسى وآخرون ، كانوا من أبرز الذين انحازوا إلى الغرب وحضارته بوصف ذلك الممكن الوحيد الذى يهيىء مصر لمفارقة الضعف والتخلف والانضمام إلى نادى الأقوياء المتحضرين !

وفى عام ١٩٣٨ أصدر طه حسين كتابه الشهير " مستقبل الثقافه فى مصر " يعبر فيه عن هذا الانحياز ، ويقدم الحجج والمسوغات التى تؤيد ماذهب اليه ، وقد رد عليه فى حينه وبعدئذ عدد من الكتاب والمفكرين من أبرزهم " سيد قطب " ، وكان يومئذ شابا تخرج حديثا فى دار العلوم ، وأتاحت له صحيفتها مساحة إضافية من صفحاتها ليرد على ما أثاره طه حسين من قضايا وآراء .

ومع أن طه حسين ، كان يركز فى معظم صفحات كتابه على تصور جديد لقضايا التعليم العام والتعليم الأزهرى ، وتعليم اللغة العربية ، إلا أن الفقرات القليله التى تضمنها الجزء الأول من كتابه " مستقبل الثقافة فى مصر " ، كانت محور النقاش والصراع الفكرى ، لأنها تناولت علاقة مصر بالشرق والغرب ، وعبرت عن انحياز صاحبها الصريح إلى الغرب بوصفه مصدر القوة والحضارة جميعا ، ورفضه الانتماء إلى الشرق الذى يعنى الفرس والهند والصين واليابان ، وإقراره بعلاقة مابين مصر والشعوب المجاورة فيما يسمى الشرق الأدنى . ثم انتهى إلى أن مصر دولة من دول بحر الروم (الأبيض) المتوسط أثرت فى العقل اليونانى حتى أيام الإسكندر ، كما أن اتصالها بالحضارة اليونانية وثيق ، لدرجة أنه وصف الاسكندرية بأنها مدينة يونانية ورتب على ذلك نتيجة مؤادها ؛ أن الإسلام لم يغير العقل المصرى ، وأن الشعوب التى نشأت حول بحر الروم وتأثرت

بـه ، لايوجـد بينهـا فـرق عقلـى أو ثقـافى مـا ، إنمـا هـى ظـروف السياسـة والاقتصاد ؟؟؟؟ من أهل هذا الساحل لأهل ذلك الساحل ...
ولا ريب أن هذه الآراء كانت صادمة لكثيرين خاصة بعد أن تبعه " سلامة موسى " فـى الحملـة علـى " الرابطـة الشـرقية " ووصـفها بأوصـاف عـدت طعنـا فـى الرابطـة الاسـلامية الدينيـة ، لقـد كـان " سـلامة موسـى " أكثـر صراحة من " طـه حسين " فـى دعوتـه إلـى قطـع العلاقـة بشـعوب المنطقـة والانسلاخ منها ، واللحاق بالغرب " وقبعته " التـى يحملهـا رأس فـى داخلـه عقل ناضج ، كما يقول " طه حسين " لقد كان الأخير أكثر ذكاء حين حمل على الرابطـة الشـرقية بوصـفها انتمـاء إلـى الشـرق الأقصـى ، ثـم أردف فـى تعبيره عن رفضه لها بتقديم تعليلات تاريخيـة تتحـدث عـن عـدول المسلمين عن اتخـاذ الوحـدة الدينيـة واللغويـة أساسـا فـى ارتبـاطهم مـع الآخـرين ، إلـى الاعتمـاد علـى وحـدة المنـافع وحـدها ، ويشـير إلـى أن الشخصـية المصـرية القديمـة كانـت حاضـرة دائمـا فـى كـل الأحـوال والظـروف حتـى مـع الفـتح الإسلامى ، فقد كان المصريون ساخطين على العرب ، وعادوا إلـى الرضـا فـى ظـل حكـم أحمـد بـن طولـون ومـن بعـده ، حيـث تحـررت الشخصـية المصرية من التأثير العربى (!)
ولا يغفـل " طـه حسـين " شـأن المعارضـة التـى سـتواجه آراءه ، لأنـه يعلـم مسـبقا أثـر الاسـتعمار الانجليـزى ومـا خلفـه فـى نفـوس المصـريين ، بـل والعـرب والمسلمين ، ولـذا يسـعى دائمـا الـى تعليـل دعوتـه وتقـديم الأسـباب التى تدفعه إلى المناداة بالاتصال مع أوربة حديثا ، كما فعلت مصر قديما أو على مدار التاريخ ، ويقول : أريد أن نلقـى الأوروبـى فنشـعر أن بيننـا وبينـه من الفروق مايبيح له الاستعلاء علينـا والاستخفاف بنـا ، ومـا يضـطرنـا إلـى أن نـزدرى أنفسـنا ، ونعتـرف بأنـه لايظلمنـا فيمـا يظهـر مـن الاسـتطالة والاستعلاء !
ولا شك أن " طه حسين " بارع فى تقديم التعليلات والأسباب ، لما يذهب إليه ، ولكن هذه التعليلات والأسباب تتهاوى عند السؤال : كيف ؟ خاصـة وأنـه وقـع فـى المحظـور عنـدما تحـدث عـن ضـرورة " أن نسـير سـيرة الأوربيـين ، ونسـلك طـريقهم لنكـون لهـم أنـدادا ، ولنكـون لهـم شـركاء فـى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، ومـا يحمد منها وما يعاب " (٤١ / ١)
لقد ضرب مثلا باليابان التى لم تخف من أوربـة ولـم تـؤثر فيهـا ، فكيـف بنـا نخاف أن تؤثر علينـا ؟ ويبـدو أن " طـه حسـين " تناسـى الفـارق بـين اليابـان وبيننا من حيث المعتقدات ومكونات الشخصية الإنسانية هنا وهنـاك ، وهـى

من العناصر الأساسية التى لابد من وضعها فى الحسبان عند النظر إلى العلاقات مع أوربة . ولعل " طه حسين " انطلق فى رؤيته تأسيسا على مايراه من أن السياسة شيء والدين شيء آخر (٢٠ / ١) ، وهو موقف لا يرتضيه المسلمون الذين يحكم الإسلام سلوكهم الإنسانى فى مجالات النشاط البشرى كافة وفق منهج واضح .
لو أن " طه حسين " عاش إلى أيامنا ورأى مدى تحكم الغرب الاستعمارى فى حياتنا وتأثيره الخطير على مقدراتنا السياسية والدينية جميعا ، لراجع رأيه ، أو احترز عند إصدار العديد من أحكامه وآرائه
الاسكندرية مدينة يونانية أثرت فى حضارات الشعوب على بحر الروم وتأثرت بها ، ولكنها – وهى رمز لمصر كلها – استوعبت ماورد إليها ، وهضمته ، ومصرته أو عربته ، وقد كانت حتى وقت قريب تمثل تجمعا دوليا يضم أسرا وأفرادا من معظم جنسيات العالم انضووا تحت سكندريتها وتكلموا لهجتها وتعودوا عاداتها ، حتى صارت مدينة مصرية عربية ، على استعداد أن تستقبل كل نافع ومفيد ، وكل ما يحب ويحمد ، دون ما يكره وما يعاب .

***

مؤتمر العامية .. والنمل الأبيض

يبدو أن أمتنا العربية الإسلامية مقبلة على رحلة أخرى أكثر إيلاما فى الهوان والمذلة ، أمام جحافل الشر العالمى والاستلاب الدولى ، بدليل انبطاح النخب المثقفة – أقصد التى تشكل الوعى المعاصر – أمام هذه الجحافل ، واستسلامها الكامل والشامل دون مقاومة ، أو لأنها أصلا ، لاتفكر فى المقاومة ، ولاتسعى إليها .

أحسست ذلك عقب انفضاض مؤتمر العامية الذى انعقد بالاسكندرية فى الثانى من أبريل ٢٠٠١ والمنتهى فى الرابع منه ، ومع أن المؤتمر أصدر توصيات جيدة فى الشأن العام ، إلا أن مضمونه إجمالا كان مؤشرا على حالة من الالتباس ، وفقدان المناعة نتيجة التعصب القبلى والخيلاء الشللى (نسبة الى شلة) والفجاجة السلوكية لدى البعض .

ومع ذلك ، فقد لمس " فؤاد قنديل " فى كلمته التى ألقاها فى جلسة الافتتاح وترا حساسا فى الحياة الأدبية بعامة والشعر بخاصة ، حين تكلم عن تسلل " النمل الأبيض " – كناية عن المتسلقين وأدعياء الشعر – إلى أدبنا المعاصر ، وبعد أن عاثوا فى شعر الفصحى فسادا بما يسمى " قصيدة النثر " نقلوا المسألة الى الزجل أو شعر العامية ، فكتبوا مايسمى قصيدة " النثر العامية " . لقيت كلمة فؤاد قنديل ترحيبا واسع النطاق ، عدا قبيلة النمل الابيض بالطبع .

فى أثناء ذلك تذكرت ماكتبته عن هؤلاء قبل عشر سنوات أو يزيد ، حين سميتهم " الهالوك " فى كتابى " الورد والهالوك شعراء السبعينيات فى مصر " ط ٢ – دار الاعتصام ١٩٩٨ م ، حيث شبهتهم بالنبات المتسلق الذى يتعلق بنبات الفول ، فيمتص غذاءه ، ثم يجف ، ويموت ، ولا يعطى ثمارا ، ولا يستفاد منه شيء ، بل يؤذى غيره لأنه يعيش عالة على غيره ، وهو ماتحقق بالنسبة لهالوك السبعينيات فى أيامنا ، حيث صاروا رمادا لا يذكره أحد ، بعد أن افسدوا الذائقة الأدبية ، وأتاحوا الفرصة أمام أعداد

غفيرة من الأجيال التالية كى يقتحموا المجال الأدبى ، وخاصة الشعر ، بلا موهبة ولا خبرة ولا ثقافة .. وكانت النتيجة وبالا على الأدب الحقيقى والأدباء الأصلاء !

عندما القيت بحثى فى مؤتمر العامية انطلقت من ثلاث فرضيات ، الأولى أن هناك من يعد العامية الطور الرابع للغة المصرية الأم (؟) . والأولى والثانية تعدان العامية بديلا للفصحى بحكم التطور ، وليس رغبة فى تمزيق الأمة العربية وأحكام الهيمنه عليها وعلى مقدراتها ، أما الفرضية الثالثة التى انحزت إليها فتتخلص فى أن العامية ، لهجة وليست لغة ، وأنها تنتج أدبا للعامة الذين لم يدرسوا النحو أو الصرف ، وتستجيب فى الوقت نفسه لهمومهم وآمالهم ، وتتحدث عن واقعهم البسيط الذى قد يتجاهله أدباء الفصحى ، وبإيجاز شديد ، فقد انتهيت بعد معالجة نقاط عديدة إلى أن أدباء العامية لا يتقاطعون مع الفصحى بل يتلاقون معها ، بوصفها الأساس الذي ترفده روافد عديدة ، وطالبت بان تعمل العامية على الارتقاء نحو الفصحى ، كما فعل بيرم التونسى وغيره من الموهوبين الحقيقيين . وقلت : إن الاتجاه الذى يرى العامية بديلا للفصحى ، أخفق فى التعبير تماما وضربت مثالا عشوائيا اخترته من كتاب اصدرته هيئة قصور الثقافة فيما يسمى شعر العامية ، فكان صورة للانفلات من قيم الفن والوطنية جميعا .

تمنيت أن يكون الحوار موضوعيا ، ولكنه انحرف إلى الحديث عما يسمى بنظرية المؤامرة ، وكأنه محرم علينا أن نشير إلى تآمر الأعداء الصريح والمباشر على وجودنا وواقعنا ، وتاريخنا ومستقبلنا .

إن المؤامرة ليست نظرية ، ولكنها تطبيق ملموس على كافة الأصعدة بدءا من دعاة ثقافة السلام مرورا بالحديث عن انتماء مصر الفرعونى ونفى العروبة فضلا عن الإسلام ، وانتهاء بالمؤتمرات الدولية التى يتم فيها تجميع النخبة المتغربة ، الموالية للغرب وقيمه ، والرافضة للاسلام وقيمه ..

كل هذا قائم جهارا نهارا ، يعلن عن نفسه بكل وضوح وقوة ، وليس محتاجا إلى تفسيره بنظرية المؤامرة ، بل هو المؤامرة ذاتها التى تتحرك فى كل اتجاه يظاهرها الاستبداد الشامل والقهر الذى يغلف حياة العرب والمسلمين ،

إن المؤامرة على اللغة الفصحى حقيقة وليس خيالا ، وقد وصلت الى صراع مسلح ضاع بسببه عشرات الألوف من المواطنين فى الجزائر ، على سبيل المثال ، وإذا كان البعض يظن أن الصراع فى مستواه السطحى يعبر عن خلاف بين فريقين يتعاطيان السياسة ؛ فإنه فى مستواه العميق

صـراع لغـوى حضـارى ، بـين مـن يفضـلون التعلـق بأذيـال الفرانكفونيـة الفرنسـية أو بمعنـى آخـر مـن يريـدون الارتمـاء فـى أحضـان الغـرب الاستعماري الصـليبى ، ومـن يقبضـون علـى هـويتهم وعقيـدتهم مـن خـلال اللغة الفصحى ، وكأنهم يقبضون على الجمر !!

إن القبيلـه الثقافيـة الحاكمـة حـين تسـعى إلـى فـرض هيمنتهـا المطلقـة علـى طريقـة نحـن أو أنـتم ، فإنمـا تخـاطر بمسـتقبل الـوطن والأمـة ، ومـا كانـت المؤتمرات والندوات إلا السبل المؤدية لها ..

لقد ضـم المـؤتمر نمـاذج أخـرى غيـر مؤهلـة للكـلام أو الحـوار ، ناهيك عن فجاجتها وخوائها ، وتعبيرها عن واقع رديء ، سماه " فؤاد قنـديل " بغزو " النمـل الأبـيض " لشـعر العاميـة ، وسـميته مـن قبـل بانتشـار " الهـالوك " ونأمل فى كل الاحوال أن يزداد حضور النماذج المهذبـة المحترمـة المنتميـة الى هوية الأمة ومستقبلها ، والله غالب على أمره .

***

العقاد يدافع على الشاشة الصغيرة
عن كرامة اللغة العربية

استيقظ " العقاد " من نومه الطويل ، ليمارس هوايته المفضلة فى الدفاع عن اللغة العربية ومقوماتها ، بعد أن أزرى بها بعض بنيها فى الحياة العامة والمحافل الاجتماعية والندوات والمحاضرات ووسائط الدعاية والنشر .

كان " العقاد " يتحدث إلى الإذاعية التلفزيونية " ليلى رستم " فى لقاء فريد وشهير أيام الأبيض والأسود فى التلفزة المصرية ، فشرق وغرب ، وانتقل من العام الى الخاص وبالعكس ، مجيبا على أسئلة المذيعة اللامعة ، وهى أسئلة صنعها الذكاء والموهبة ، فتنقل إلى المشاهد أيا كان مستواه أو تخصصه فكر العقاد وتصوراته .. تحدث العقاد عن الوجودية والسريالية ، فعرف المشاهد ماذا تعنى كل منهما ، والعناصر المفيدة فيهما ، والمعطيات المرفوضة فيهما أيضا ، ثم تكلم عن سر عدم زواجه ، وعدم إنجاب المشاهير أو كثير منهم لذرية من بعدهم ، ولماذا يسكن فى المنزل رقم " ١٣ " ، وكيف يواجه التشاؤم ، وإصراره على التحدى عندما دخل السجن عقب نشر كتابه عن ابن الرومى ، ولماذا يضع تمثال " بومة " على مكتبه .

المدهش فى حديث " العقاد " ماورد عن والديه ، وكيف تأثر بهما ، وبأمه خاصة ، وكيف كانا ملتزمين ، ومنظمين ، وأثر ذلك فى بناء الأسرة ، ولماذا لم ينشر لأمه نعيا فى الصحف عند وفاتها ..

أما كلامه عن " كرامة اللغة " فقد كان أمرا جديرا بالاحترام حقا ، وإذا عرفنا أنه كان يتحدث فى وقت مازالت للغة العربية فيه بعض المهابة (أوائل الستينيات) ، فلك أن تتخيل المسألة لو شاهد " العقاد " ماوصلت إليه اللغة العربية وأحوالها ونصيبها من الاحترام والتوقير بعد أربعين عاما

تقريبا ، وصارت فيه مثل اليتيم على مأدبة اللئيم .. مرفوضة منبوذة لدى أهلها ومواطنيها ، يزرون بها فى كل مكان ، ويعاملونها معاملة غير كريمة ، اللهم إلا فى بعض المؤسسات والمناسبات .
عندما سئل العقاد عن الشعر الحر .. تساءل : حر من ماذا ؟ من الوزن والقافية ؟ ولماذا يسمى شعرا حين يكون حرا من ذلك ؟
إن الكلام حين يتحرر من الموسيقى له اسم آخر ، هو النثر ، فلماذا نسميه شعرا حرا .. وأسهب العقاد فى الحديث عن خصائص اللغة العربية ، وينبغى عدم التنازل عنها لحساب لغة أخرى ، لأن هذا من كرامة اللغة ، ويجب الحفاظ على هذه الكرامة . وكأنى بالعقاد لا يدافع عن كرامة العربية فحسب ، ولكنه يدافع عن كرامة العرب ، وشخصية العرب ، وهوية العرب .. وأتخيل ماتفعله فرنسا مثلا حفاظا على الفرنسية ، وإنفاقها غير المحدود على الفرانكفونية ، وحرصها – من خلال السفارات والمؤسسات الفرنسية فى الخارج – على لغتها ونشرها وتشجيع من يدرسها من الطلاب وغيرهم ، ثم أقارنه بما يفعله غيرهم من تحقير للغتهم الأم ، وإبعادها فى الدراسة والقراءة والمكاتبات ، واتخاذ الحروف الأجنبية والعبارات الأجنبية عنوانا على محل ، أو شعارا على قميص ، أو علامة على منتج ، فأشعر بالفارق الكبير ، وأحس بالعار الوطنى لأن لغة بلادى تلقى الإهمال والجحود والازدراء ، وبعض أهلها يتماهون مع لغة أجنبية وحرف أجنبى !
" ليلى رستم " استخرجت مكنون " العقاد " فى نموذج راق للحديث التلفزى ، يسعى للتعرف على مالدى كبار الأدباء والكتاب ، بعيدا عن الجفاف والتقعر والتحنيط ، فرأينا العقاد يضحك ويبتسم ، ويتفاعل وينفعل ، ويحدثنا بلغة عربية سهلة تختلف عن لغته وهو يكتب أو يؤلف أو يطالع الناس على الورق المكتوب ، لقد رأينا العقاد الإنسان الحى الذى نصغى إليه ونتأمل كلامه ونتعرف على ملامحه وعبقريته .. تمنيت بالطبع أن تكون هنالك أحاديث مشابهة مع كبار معاصرينا من الأدباء والكتاب والعلماء ، تجمع معادلة الجدية والبساطة ، وتبتعد عن التكلف والسطحية ، وتأتى إلى الشاشة بالأدباء الحقيقيين والكتاب الأصلاء ، والعلماء العاملين ، ولكن هذا – فيما يبدو لى على الأقل – بات أمرا نادرا ، لأن العالم العامل مشغول بعلمه وعمله ، والكاتب الأصيل يجوّد فكره وقلمه ، والأديب الحقيقى يسعى إلى المزيد من الإبداع والابتكار .. أما الساحة فمكشوفة أمام العلاقات العامة ، ومنهج الدعاية ، ولغة المصالح .. وبالطبع لا نستطيع أن نقول لمن يعنيهم الأمر : ابحثوا عن الجيد والأصيل والصادق !

قبل فترة اطلعنى صديق على شريط للأديب الراحل " على أحمد باكثير " تم تسجيله فى الكويت وأذيع فى تلفزيونها فى الفترة التى أذيع فيها شريط العقاد تقريبا، فرأيت مدى الخسارة التى تنزل بالمشاهد حين لا يشاهد مثل هذا الشريط ، فى الوقت الذى تلح عليه شرائط أخرى لا قيمة لها ، إلا أن أصحابها من ذوي الحناجر المعدنية أو الأقدام الذهبية أو الخصور اللولبية ، تمنيت أن تعيد القنوات الرئيسية أرضية وفضائية أحاديث الأدباء الكبار ، وخاصة من شارك فيها بالسؤال ممن صاروا كبارا اليوم . لترى الأجيال الجديدة ، معنى الكلمة ، وقيمة الأدب ، وكرامة اللغة العربية .

لقد أثار حديث " العقاد " الذى أعادت إذاعته إحدى القنوات المتخصصة شجونا كثيرة فى نفسى ، لا يتسع المجال لتناولها ، تتعلق باللغة شكلا ومعنى ، لفظا ومضمونا ، صياغة وقيمة ، خاصة بعد أن أصابها الابتذال على يد كثير من العاملين فى مجالها والعاملين عليها ، ممن دخلوا إلى ساحتها فى غفلة أو بالتواطؤ ..

ترى هل يكون دفاع العقاد عن كرامة اللغة حافزالآخرين على مواصلة الدفاع عنها ، والانضمام إلى الإذاعي الكبير طاهر أبوزيد وجمعية لسان العرب وأنصار اللغة العربية وأحبائها ؟

***

شاهد على مؤتمر ..

المخطط الثقافى الغربي من خلال بعض المثقفين العرب

فـى عـام ١٩٩٥ تقريبـا ، أصـدرت كتـابى " لـويس عـوض ..الأسـطورة والحقيقة " . قدمت من خلاله نموذجا لعملية الاستلاب التى تقوم بها بعض النخب العربية ، لتحويل العالم العربى والإسلامى إلى مجرد تـابع لاقيمـة لـه ، يدور فى فلك الهيمنه الغربية المعاصرة ..

كـان لـويس يحظـى بهالـة مـن التقديس والتعظيم تجعل الاقتـراب منـه بالنقد والتفسير والتحليل ، جريمة لاتغتفر .. ومع ذلك ، فإننى اقتربت من " الوثن " الذى يقدسه كثيرون من قادة الفكر العربى المعاصر ، ويرونـه مثالا يجب أن يحتـذى . كانـت محـاولتى المتواضـعة مزعجـة للحيـاه الثقافيـة بعامـة . غضـب مـن غضـب ، وثـار مـن ثـار ، وكانـت عقوبتى هـى تجاهـل الكتـاب والتعتيم عليه ، ولم يحظ بسطر واحد فى الصحف القومية ، باستثناء عرض قـام بـه أحـد اصـدقائى فـى نوبـة شـجاعة ، ولكـن النتيجـة كانـت مزيـدا مـن الصمت والتعتيم !

وفى أوائل عام ٢٠٠١ أعلن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن ندوة دولية حول ماسمى بالمشروع الثقافى للويس عوض ، دعا إليها المتخصصـين فـى مصر والعالم العربى ، وتلقيت بوصفى رئيسا لقسم اللغة العربيـة فـى الكليـة التى أعمل بها آنئذ دعوة للحضور والمشـاركة ، وكنـت فـى البدايـة عازمـا علـى عـدم الحضـور ، بحكـم أننـى – كمـا توقعـت – سـأكون صـوتا منفـردا ونشـازا ، ضـمن جوقـة متآلفـة متناغمـة ، تخلـص جيـدا لأهـدافها وغاياتهـا ، وأهمهـا الـولاء للمشـروع الثقـافى الغربـى بتجلياتـه المتعارضـة مـع قيمنـا

وهويتنا ... ومع ذلك ، فقد آثرت فى اللحظات الأخيرة الحضور والمشاركة .
انعقدت الندوة فى الفترة من ٢٠٠١/٩/٢٩ الى ٢٠٠١/١٠/١ ، وكان البرنامج حافلا بالجلسات والشهادات ، ورأس الندوة الكاتب اليسارى المعروف " محمود امين العالم " ، وبالطبع كانت الأغلبية الساحقة من المشاركين ينتمون إلى اليسار الماركسى ، والعلمانيين عموما ، وكان حضورهم أساسا – تأييدا للمشروع الغربى الحداثى الذى نهض بعبئه لويس عوض ، طوال حياته الثقافية فى الجامعة – والصحافة والأدب ، بهدف القطيعة مع التراث العربى ، واحتقار القيم العربية ، والانسلاخ عن الهوية العربية .
فى جلسة الافتتاح تحدث مندوب أسرة لويس ، وهو شقيقة رمسيس عوض ، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة ، فأشاد بأخيه ، ولكنه وصفه وصفا موضوعيا حيث ذكر أن لويس ظاهرة فكرية معقدة ، وأنه كان يجب أن يكون الآمر الناهى ، وأنه فى حياته كان " ديكتاتورا " ! وقد ضاعت هذه الصفات فى مهرجان التقديس الذى ظهر من خلال كلمة رئيس الندوة " محمود أمين العالم " وكلمة الدكتور " جابر عصفور " أمين المجلس الأعلى للثقافة ، فضلا عن معظم الأبحاث التى قدمت فى الجلسات .
وقد شارك فى تقديم الأبحاث كل من : أبو الحسن سلام ، أحمد عباس صالح ، أنور لوقا ، الأيمن باتع فهمى ، إيمان القرموطى ، بدر الديب ، ثائر ديب ، جهاد فاضل ، حامد أبو احمد ، حسنى محمود ، حلمى القاعود ، خالد السرجانى ، خالد عباس ، خليل كلفت ، رجب عبدالجواد إبراهيم ، سامى سليمان أحمد ، سعيدة محمد حسنى ، سمير عوض ، سمير غريب ، سيد على إسماعيل ، سيد عشماوى ، شعبان يوسف ، عادل ثابت ، عاصم الدسوقى ، عبدالحميد حواس ، عبدالرحمن أبو عوف ، عبدالرحمن بسيسو ، عبدالرحمن الكردى ،عبدالعزيز موافى ، عبير سلامة ، عزة بدر ، فاروق العمرانى ، فاطمة موسى ، فتحى عبدالفتاح ، فريدة النقاش ، فيصل دراج ، لطيفة إبراهيم برهم ، لمعى المطيعى ، ماهر شفيق فريد ، مجدى عبدالحافظ ، مجدى يوسف ، محمد حسن عبدالحافظ ، محمد دكروب ، محمد شاهين ، محمد عبدالنبى اصطيف ، محمود حسن عبدالوهاب ، محمود قاسم ، مهدى بندق ، نبيل سليمان ، نبيل فرج ، نسيم مجلى ، نعمة خالد ، هانى المرعشلى ، وفيق سليطن ..
وقد تخلف بعض هؤلاء عن الحضور ، ولكن السمة العامة للأبحاث كانت تشى برفع لويس عوض ، الى صاحب المشروع الثقافى الرائد والنادر

ووصفه بعضهم ، بالمعلم العاشر ، على أساس أن أرسطو هو المعلم الأول ! وقال بعضهم : إنه نموذج فذ فى ثقافتنا المعاصرة ، وهو المفكر والمبدع صاحب النزعة الديمقراطية !، وهو بروميثيوس سارق النار المقدسة من آلهة الأولمب ، وصانع المعرفة والمتمرد والثائر والباحث عن الأفضل والمهموم بالإنسان والبشر ! ورأى بعضهم أن معركته كانت مع اللغة العربية ، حيث بدت له وكأنها لغة مقدسة فوق مجتمعية ! وزعم أنه أخلص لقضيتين هما : التجديد وحرية الفكر !

وقد حاول بعضهم دعم مواقف لويس عوض الغريبة فى تلميع بعض الخونة وإلباسهم لباس البطولة والوطنية ، مثل المعلم يعقوب ، الذى انحاز الى نابليون وحملته الفرنسية على مصر ، وحارب مع الجيش الفرنسى ضد المصريين ، " وكرنك فى الرويعى " حسب رواية الجبرتى ، ليصب الهلاك بالبارود على أبناء شعبه !

كما حاول بعضهم أن يبرئ " لويس عوض " من تهمة الانعزالية ورفض الوحدة العربية ، ولكن هذه المحاولة ارتكزت على مسوغات هشة تدحضها كتاباته التى مجدت الفرعونية ، وعدتها أصل ما يسميه القومية المصرية .

والمفارقة أن " لويس عوض " هاجم الماركسيين هجوما عنيفا واحتقرهم ، ولكنهم مع ذلك التمسوا له الأعذار ، يعلنون اختلافهم معه ، ولكنهم يقدسونه ويرفعونه إلى مراتب القديسين والأنبياء !

ومع ذلك نراهم ، يتفقون مع العلمانيين – فى شن الحملات ضد من يسمونهم الظلاميين والمتعصبين ، الذين كانوا يخالفونه ويرفضون أفكاره ، وزعم بعضهم أن معارضته كانت نابعه من كونه غير مسلم ، وألح كثيرون على هذه النقطة ، مما دفعنى إلى طلب الكلمة فى الجلسة الأولى لأقول إن الحضارة الإسلامية هى التى سمحت على امتداد زمنها لغير المسلمين ومنهم لويس عوض بالحرية والفكر وقول مايخالف خصائصها ، ولكن من حق أهلها أن يعبروا عن أفكارهم ويردوا على مقولاته التى تعد استنساخا هجينا للمشروع الثقافى الغربى ، وقلت للحاضرين : إن اغلبيتكم الساحقة تنتمى إلى الاسلام دينا ، وكلكم – مسلمين وغير مسلمين – تنتمون ألى الاسلام حضارة وثقافة ، وهو ما أتى بكم إلى هذه القاعة لحضور هذه الندوة وكتابة الأبحاث والأوراق تمجيدا للويس أو مناقشة له ، وقد خفف كلامي العزف على نغمة معارضة لويس عوض لكونه غير مسلم ، وجعلها تخفت إلى حد ما .

فى الوقت ذاته ، لم تعدم الندوة بعض الأبحاث الجرئية التى عارضت وسبحت ضد التيار ، ولكنها للأسف كانت قليل' جدا ، ومع ذلك فقد جعلت

الحرارة تدب فى جلسات الندوة ، وتصنع معادلا لحالة " التقديس " التى هيمنت على جوها العام .
من هذه الابحاث ، بحث " جهاد فاضل " حول " لويس عوض مفكرا " وجاء فيه : " شكلت العلمانية ملمحا أساسيا من ملامح هذا المفكر اللامع ، القلق والمقلق معا ، والشخصية الخلافية التى أشعلت الكثير من المعارك الفكرية ، فولاؤه للعلمانية كان ولاء كاملا ، تماما كعدائه للعروبية والاسلامية ، ويبدو أنه وجد فى العلمانية طوق نجاه لمصر ، كما وجد فيها حلا لمأزق الأقليات فى بلد يشكل الإسلام دين الأكثرية فيه ، ولكن دون أن ينتبه إلى أمر جوهرى هو أن العلمانية التى نادى بها ، هى علمانية ذات وجه أوربى لا تأخذه فى الاعتبار ظروف مجتمع إسلامى شرقى لا يشكل الإسلام فيه مجرد دين ، ومع أن البعض تعامل مع لويس كمفكر ماركسى ، فالواقع أنه لم يكن ماركسيا يوما ، وإنما كان دائما مفكرا اشتراكيا ..."
وأرجع الدكتور " حسنى محمود " من الأردن محاولة لويس للتنظير ، بسبب تأثير الثقافة الغربية وطغيانها عليه ، وقد جرفه ذلك إلى كثير من التطرف والتعصب اللذين أديا إلى إخفاق دعوته وإلى محدودية آثاره .
وتتحدث ورقة الدكتور " سيد على إسماعيل " عن مزاعم لويس عوض عن يعقوب صنوع ، وتدحض بالأدلة أن الرجل لم يأخذ للبحث العلمى وسائله الصحيحة فى الحديث عن حياة صنوع ، مما أدى به إلى نتائج خاطئة ، تخص تاريخ المسرح ونشأته فى مصر ، وعلاقة صنوع بزعماء تلك الفترة من أمثال جمال الدين الأفغانى واحمد عرابى ومحمد عبده .
إن الأخطاء الفاضحة والفادحة جاءت على قلم لويس عوض بسبب اعتماده على مرجع واحد فى جميع ما يقوله ، وهو كتاب صدر باللغة الانجليزية عام ١٩٦٦ من جامعة هارفارد الأميركية تحت عنوان (الرؤى العملية ليعقوب صنوع) لإيرين جنديز ، التى قامت بتفسيرات غير منطقية ،ووضعت احتمالات غير مستساغة بنت عليها أقوالا غريبة وعجيبة ، نقلها لويس دون التدقيق فيها ، أومناقشتها.ولنا –نحن القراء – أن ندرك بعد ذلك طبيعة منهج لويس فى كتاباته الأخرى !
وتناولت ورقة الدكتور" هانى المرعشلى " عملية التزييف التى قام بها لويس عوض فى واقعنا الفكرى والثقافى . لقد نصب الإغريق " منيرفا " رمزا للحكمة بين آلهتهم ، ونصب لويس عوض – أو نصبته آلة الإعلام الرهيبة – رسولا فى عصرنا الحديث ، مرتديا مسوح الحكماء ويزدان صدره بأوسمة عديدة .

فهو الشاعر والأديب والناقد والمفكر والمؤرخ .. ومن هنا منح نفسه حق إسقاط الملوك فى هذه المجالات وتنصيب غيرهم بدلا منهم ، وأمسك بمعوله يدور به يمينا ويسارا مطيحا برموز تراثنا وفكرنا وتاريخنا ، هادما للعروش ومانحا الصولجان لمن شاء ، فى ظل مقولات ومسوغات يكشفها بحكمته ..وتصل ورقة المرعشلى إلى القول : وهكذا اكتشفنا على يديه تهاوى المعرى ، وتهافت ابن خلدون والطهطاوى ، وسذاجة الجبرتى وأخيرا خيانة الأفغانى !

إننا نحاول – والكلام للمرعشلى – من خلال متابعتنا لبعض المعارك الفكرية حول آراء لويس عوض التوصل إلى وجه محدد لصاحب الأقنعة ، هل ينتمى إلى وطنه أم هو موال للغرب ؟ هل هو لاهوتى أم علمانى ؟ هل هو يمينى أم يسارى .. الخ ؟

وقد أثارت هذه الورقة بالاضافة إلى بعض الأوراق الأخرى ، ومنها ورقة كاتب هذه السطور ، انفعالات حادة من هيئة تقديس لويس عوض ، لدرجة أن بعضهم وقف فى مداخلة وقد خرج عن أبسط قواعد الحوار والنقاش ، ليتهم بعض الباحثين بتهم غير علمية وغير موضوعية .. ولكن المحصلة النهائية ، كانت كسرا للوثن الذى صنعته الدعاية ومن يقفون وراءها .

لقد تسابقت الصحف وأجهزة الدعاية الأخرى فى الإشادة بلويس عوض ومشروعه الثقافى كما يسمى ، ولكن هذه الندوة ، بالأوراق القليلة السابحة ضد التيار ، أعادته إلى حجمه الطبيعى وسلكته فى الإطار الذى ينبغى أن يكون ضمنه ، وهو المخطط الثقافى الغربى بتجلياته العدوانية المتعصبة !

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الغائب الحاضر فى هذه الندوة هو العلامة الراحل " محمود محمد شاكر " أول من تجرأ على كشف أباطيل لويس عوض وأسماره ، حيث كان ماسطره عنه هاجسا يؤرق الشيوعيين والعلمانيين باستمرار ، ويضعهم فى خانة الدفاع عن النفس .. وكانت الندوة فى كل الأحوال فرصة للتعرف على بعض الباحثين من اتجاهات متغايرة ، وهو مايجعل التقارب الإنسانى وسيلة إإى التقارب الفكرى ، وهناك طرائف فى هذا السياق تثير الضحك والحزن لا مجال للحديث عنها الآن .. ولعل فرصة أخرى تسمح بها .

***

أفعل التفضيل

مشكلة التعبير الثقافى والسياسى فى مصر – كما أفهمها فى اللحظة الراهنة – هى استخدام " ، أفعل التفضيل " ، وهذا فى حقيقة الأمر ، دليل على خلل بالغ ، ونذير خطر عظيم ، فضلا عن مجافاته لروح العلم والمنطق والمنهج السليم . فعندما تسمع مثلا من يتحدث عن " أزهى " عصور الثقافة ، و" أزهى " عصور الديمقراطية ، و" أزهى " عصور الحرية ، فسترى نفسك تعيش فى " الجنة " وليس فى " الجحيم " ، وبالتأكيد ستحس وتشعر أن مصر المعاصرة ، قد خلت من الأمية والأميين ، وأن أهلها جميعا يقرءون ويتثقفون وفقا لأفضل (أفعل تفضيل) معايير القراءة والثقافة ، وأن الشعب المصرى بدءا من مجالس القرى والمدن والمراكز حتى مجلس الشورى ومجلس الشعب ، يمارس حريته ودوره السياسى دون قيود أو سدود أو محاذير ، وأن الأمة فى نهاية الأمر تشارك فى مصيرها ومستقبلها ، وتصنعه وفق رؤاها وتصوراتها .

" أفعل التفضيل " ينسحب على الأحكام الأدبية والفنية والسياسية ، فهذا أكبر أديب ، وذاك أعظم ممثل ، وذلك أكبر زعيم أو أكبر خائن .. ويستمر " أفعل التفضيل " فى تجلياته ، ليجعل من حق من يطلق عليه لقب الأكبر والأعظم والأجمل والأطول والأقصر والأبعد والأقرب ، يطالب بحقوقه المشروعة المترتبة على اللقب دون هوادة أو تراخ .. ولعل هذا أيضا مايفسر افتقاده الحياة الثقافية والسياسية والفكرية عموما ، إلى الحوار المثمر والتفاعل الخلاق ليحل مكانهما حوار الطرشان وهجاء الخلان !

ومن هذا المنطلق التفصيلى الذى يقوم على روح " الأنا " ، وتورم " الذات " ، جرأة أحدهم فى أحد الحوارات ، أن يرى نفسه أحق بجائزة نوبل بعد " نجيب محفوظ " فى العالم العربى . مع أن صاحبنا – وقد أسكره أفعل التفضيل الذى يتم إغداقه عليه ليل نهار بسبب رئاسته لمطبوعة ثقافية – لا يجيد أولويات الكتابة الأدبية من نحو وصرف وتراكيب ، فضلا عن الموهبة الحقيقية التى تؤهل للبناء الأدبى فى الجنس الذى يكتب من خلاله .
إن " نجيب محفوظ " مثلا ، قد أخذ نفسه " بالحزم " منذ بداياته يقرأ ويقرأ ويقرأ ، ويتعمق فى أساليب الكتابة ، ويجتهد فى الأبنية الأدبية ، ويثابر على جذب المعرفة والجديد ، تراثيا وعالميا وواقعيا ، ثم هو بعد ذلك متواضع ورقيق ودمث ، ولم يؤثر عنه أنه منح نفسه مثلا لقب " مبدع " ، كما يتجاسر بعض أصحاب المواهب الضحلة ، و " فهلوية " الأدب والثقافة ، ثم لأنه صاحب موهبة حقيقية وثقافة عميقة ، يفرض عليك احترامه ، اتفقت معه أو اختلفت ، ولم يسع يوما إلى الصراخ من أجل ما يسمى حرية التعبير " الفهلوية " التى تغطى على الضحالة والسطحية والتربح غير المشروع ، ولكنه " بموهبته " " وخبرته الفنية " عبر عن قضايا الدين والجنس والمجتمع والسياسة والثقافة والاقتصاد والتاريخ والوطن والهزائم والانكسارات ... فى أطر جمالية حقيقية ، ومتعة أدبية أصيلة ، وصارت كتاباته تفرض نفسها على الناس ، دون اعتماد على العالقات العامة ، أو تبادل المصالح والمنافع أقصد هنا العمليات المعروفة الشائعة الآن ، أقوم بتلميعك فى مطبوعتى بنشر الأخبار والتحقيقات والتقريظات ، وأنت تكتب عن إنتاجي الأدبى نقدا ودراسة وتحليلا ... وهكذا ... والمضاعف المشترك الأصغر ، والأكبر أيضا ، هو " أفعل التفضيل " في الأوصاف المتبادلة بين الطرفين !
" أفعل التفضيل " يفسر لنا سر التدهور السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى الذى يعانية المجتمع الآن ، ومنذ سنوات بعيدة ، آثر فيها البعض أن يقلب الحقائق ، ويزور الوقائع ، ولا يصف الأشياء كما هى ، أو بالوضع الذى هى عليه ، ازدهر " أفعل التفضيل " ومايقترب منه فن الأوصاف والنعوت . تأمل مثلا : أحسن ديوان ،أعظم رواية ، أفضل مقال ، أكبر ناقد ، شيخ الكتاب ، زعيم الأدباء ، أمير الدراما ، كبير الرحيمية قبلى ، سيدة الشاشة ، نجمة الجماهير ، نجمة مصر ، زيارة تاريخية ، خطاب تاريخى ، انتصار تاريخى ، الزعيم الملهم ، القائد الجماهيرى ، العاهل المفدى ، الكوميديان الأعظم ، الداعية الأكبر ، ال... وهكذا نجد " المبالغة " التى كانت تمثل طاقة بلاغية تعبيرية فى أدبنا العربى على مر

التاريخ ، تتحول فى عصرنا الراهن إلى عائق يحول دون الوصف الدقيق الصادق للأمور والشخوص والأحداث ، فعشنا فى أكاذيب تنقض غزل حياتنا ، بل تقلبها رأسا على عقب !

وإذا كان فساد الحياة الاجتماعية فى جوانبها المختلفة يلقى بظلاله على الحياة الثقافية بصورة واضحة ، فإن واجب المثقفين " الأحرار " وأقصد بالأحرار الذين لا تستعبدهم المصالح أو المنافع او المناصب أو الوجاهه أو الشهرة ، هو استعادة التوازن في حياتنا الثقافية خاصة ، والحياة الاجتماعية عامة ، من خلال لغة دقيقة صادقة ، لا ترهبها غوغائية أصحاب المواهب الضحلة ، ولا العاطلين عن الثقافة الحقيقية ، وأيضا لا تغريها غوايات خصوم الحرية ، وأعداء الديمقراطية ، ومصاصى دماء الناس ..

أن الصمت أحيانا بلاغة ، ولكن سنوات الهزائم والمحن والأزمات ، صنعت جيلا من المثقفين وأصحاب الأقلام ، لا علاقة لهم بالبلاغة سواء بمعناها الأدبى أو معناها الاجتماعى ، فراحوا يغسلون الأمخاخ ، ويزيفون الحقائق ، ويزينون الباطل ، ويهمشون الجادين والموهوبين ، ويروجون للهازلين والتافهين ، ويتخذون من كل ذلك تجارة حراما أو " سبوبة " غير شريفة ، معتمدين على دعم جهات أو أجهزة لاتحب الخير للشعب ولا للوطن ولا للأمة ، وما كتاب السيدة " فرنسيس . س . ساوندرز " المعنْوَن : " من يدفع
للزمار ؟" الذى يكشف بعض الحقائق عن الكتاب العملاء ، والفكر المعادى ، إلا قطرة من بحر " أفعل التفضيل " ولمحة من وجه كئيب لم تنجح فى تغييره طلاءات الدعاية ولا أضواء الشهرة ..

ترى متى ينتهى عصر أفعل التفضيل؟

***

ثقافة البحيرة .. وأمين يوسف غراب !

نشرت " الجمهورية " فى ١/٢/ ٢٠٠١ خبرا حول مؤتمر أو ندوة تقيمها محافظة البحيرة ، التى أشرف بالانتماء إليها والإقامة فيها منذ مولدى حتى الآن ، ليس فى عاصمتها ولا فى إحدى مدنها ، بل فى قرية من قراها المتواضعة !

المؤتمر أو الندوة عن الأديب الراحل " أمين يوسف غراب " ، وهو كاتب موهوب ، وإن كان سيئ الحظ مثل معظم أدباء البحيرة ، القدامى والمعاصرين ، وربما القادمين ، فلم يلق اهتماما نقديا ، ولا تقديرا إعلاميا ، ولا يذكره الناس عادة إلا مع فيلم تحية كاريوكا " شباب امرأة ".

ليس هذا هو المهم ، ولكن المهم أن الجهة التى تقوم بالاحتفال به ، ولعلها الثقافة الجماهيرية ، لم تضيع وقتها سدى ، فقد قررت أن تاتى برئيس المؤتمر والباحثين والمكرمين معها ، من القاهرة ، دون أن يكون لأهل المحتفى به دور . ولم أر فى قائمة نجوم المؤتمر أحدا من اهل البحيرة إلا شابا او اسم شاب من القريبين من مبنى الثقافة بدمنهور ، ولا أدرى هل يعتقد أصدقاؤنا الفضلاء فى الثقافة الجماهيرية ، أن أهل البحيرة أميون إلى الدرجة التى لا يجدون بينهم رئيسا للمؤتمر أو باحثا يمكن أن يتناول أدب " أمين يوسف غراب " ، أو مكرّما يستحق التكريم الحقيقى ؟

يبدو – والله أعلم – أن الثقافة الجماهيرية – أو هيئة قصور الثقافة كما تسمى الآن – تصر أن تكون الولائم الأدبية وغير الأدبية من نصيبها

وحدها ، كما تصر أن تحرم الآخرين من ولائمها الدسمة وغير الدسمة ، سواء فى مجالات النشر أو المؤتمرات أو الندوات أو المعارض أو المناسبات الجماهيرية ، وهذا من حقها – فيما أرى – فهى صاحبة " الفرح " ، وهى التى تنفق على الضيوف ، وصاحب النقود أعرف بطرق صرفها ، حتى لو كانت من أموال دافع الضرائب البائس المسكين !
ولكن أبسط الأمور ، يتمثل أن يكون لأهل البحيرة دور ، ولو كان رمزيا فى الاحتفال بابنهم " أمين يوسف غراب " ، فأينما قلبت بصرك ، وجدت أستاذا جامعيا ، وأديبا موهوبا ، وشاعرا كبيرا ، وصحفيا بارعا ، وإذاعيا لامعا ، يمكن أن يشارك بجدارة واستحقاق فى الاحتفاء بأمين يوسف غراب وأن يقدمه للناس بطريقة جيدة ، ربما تفوق محترفى المؤتمرات والندوات التى ترعاها الثقافة الجماهيرية والسادة موظفوها فى الأقاليم !
ولو أن الأمر اقتصر على " أمين يوسف غراب " لقبله الناس على مضض ، " ومؤتمر يفوت ولا أحد يموت " – على رأى المثل الشعبى ، ولكن المسألة لها سوابق ، حين أقامت الثقافة الجماهيرية الموقرة مؤتمرا حول " محمد عبدالحليم عبدالله " ، وآخر حول الشاعر " على الجارم " ، وقد علمنا أن موظفى الثقافة بالمحافظة كانوا قد كلفوا بعض الباحثين والدارسين فى المنطقة ليعدوا ابحاثهم حول ادب " محمد عبد الحليم عبدالله " ، ولكن لسبب مجهول ، تم إلغاء هذا التكليف بطريقة فجة وغير مهذبة ، وجاء سادة القاهرة من رؤساء الثقافة الجماهيرية بطاقم كامل يتولى شئون المؤتمر وفعالياته وتكريماته ، وكان من المفارقات المضحكة أن يجعلوا " محمد عبدالحليم عبدالله " نموذجا للرواية الرومانسية (!) وكأن من تصدى لذلك لم يقرأ للرجل شيئا ، وسمع بعض مايقال عنه على مقاهى وسط البلد ، ولم يعرف أن للرجل أدبا يمثل مراحل متعددة ، وليس الرومانسية وحدها التى تبدو فى نظر البعض " المسطح " شيئا فلكلوريا أو متحفيا ، مضى زمانه ، بل إن بعض من قاموا على شئون المؤتمر ، تنكر لمحمد عبدالحليم عبدالله فى حياته وبعد مماته ، وهو الذى أسدى لهم كثيرا من الفضل والحنو ، وياحسرة على العباد !.
كنت أول من أصدر كتابا عن " محمد عبد الحليم عبدالله " وأكثر من اهتم به بعد رحيله بوصفى محبا له ، ولأدبه أولا ، وبوصفى من اهله وبلدياته ثانيا ، وبوصفى باحثا متخصصا ودارسا ناقدا آخرا ، ولكن قومنا فى الثقافة الجماهيرية وموظفيها بدمنهور ، لهم رأى آخر ، ووجهة نظر عبقرية لا نعلمها !

ماجرى مع عبدالحليم عبدالله ، جرى مع – على الجارم - ، ومع أنى من اوائل من كتبوا عن على الجارم – من أهل البحيرة - - فلم استغرب مافعله الموظفون إياهم ، ولم اسع لتفسيره ، لأن من يستغنى عن القاهرة وأضوائها وجماعتها وشللها وثقافتها الجماهيرية والحرفوشية والصفوية ، لا يحتاج إلى السعى نحو موظف بمديرية دمنهور !
بيد أن " أمين يوسف غراب " كان يستحق ان يرأس مؤتمره واحد ممن عرفوه ، أو عاشوا معه فى محافظته ، أما كان ينبغى مثلا أن يكون على رأس هذا المؤتمر الشاعر الكبير الأكاديمى اللامع " عبده بدوى " أو صاحب الموسوعة الشهير " عبد الوهاب المسيرى " ، او الشاعر الجاد " يس الفيل " ، وبلاش " أساتذة الجامعة الكبار من أهل المحافظة ؟ صحيح أن خيرى شلبى صديق عزيز ، وأديب شهير ، ودرس وعاش بعض عمره فى دمنهور ، ولكنه لا يمانع أن يكون رئيس المؤتمر من أهلها النابغين وما أكثرهم .. بل ليتهم جعلوا " محمد صدقى " هو رئيس المؤتمر ، فهو من أهل المدينة ، وصاحب أول صفحة أدبية تهتم بأبناء الأقليم من امثالنا ؟ أكتفى بهذا ، علما انى وامثالى لسنا بحاجة إلى الثقافة الجماهيرية ولا إلى ثقافة دمنهور .

***

مفارقات المشهد الثقافى الراهن

تابعت مايجرى على صفحات الأدب والثقافة فى الصحف اليومية والاسبوعية حول قضايا النشر ، وهيمنة فريق محظوظ على السلاسل والدوريات الحكومية أو التى تصدر بأموال عامة تخص المصريين جميعا ، وليس فردا بذاته أو قطاعا خاصا ، وتحويلها إلى حكر لهم ولأشياعهم وحسب .

والمفارقة أن الفريق المهيمن المحظوظ يشكو أن مكتبة الأسرة لا تنشر له بعض كتبه ، فى الوقت الذى حظيت فيه هذه الكتب بالنشر ، مفرقا ومجموعا ، فى دور النشر الرسمية أو التى يملكها الناس جميعا ، ولكنه لا يكتفى بذلك ، بل يريد أن يجمع المجد والمال والشهرة من أطرافها ولا يتحمل فى اللحظة ذاتها أن يشكو كاتب أو كتاب من الفريق غير المحظوظ – مجرد شكوى – بسبب رفض أعمالهم أو إهمالها !

ولا أرى المشكلة في قضية النشر أو عدمه ، إنها أعمق بكثير ، حيث إن المشهد الثقافى الراهن يعلن عن فساد الحياة الثقافية ، وتغلغل هذا الفساد حتى النخاع والعظم ، ولا علاج لإصلاح هذه الحياة الفاسدة ، إلا بالغاء وزارة الثقافة ، وإنهاء دورها فى واقعنا الاجتماعى ، بعد أن أثبتت الأحداث والوقائع اليومية أنها لم تنجز شيئا ذا بال ، بل بذرت سموما فاسدة أثمرت وأغدقت فى كافة الميادين : النشر – الدوريات – الآثار – الينما – المسرح – المؤتمرات والمهرجانات – الرقابة – الفنون التشكيلية - ... الخ وقد ضج

الناس مما يحدث ويجرى ، وتكلم المتكلمون ، وتحدث المتحدثون ، وكتب الكاتبون ، ليؤكدوا فساد الحياة الثقافية ، وقد استطاع المسئولون الثقافيون أن يجدوا فى الفريق المهيمن المحظوظ أداة جيدة ، لتنفيذ أبشع عملية تسطيح للوعى وتزييفه ، وتسويغ التبعية الثقافية للأعداء التاريخيين من خلال فكر منحرف ، ورؤى مدمرة للشخصية الحضارية للأمة .

طالبت منذ زمان بألغاء وزارة الثقافة ليعتدل النظام الثقافى فى بلادنا ، ونوفر على شعبنا ملايين كثيرة يحتاجها فى مشروعات أهم وأخطر مثل الإسكان والصرف الصحى وشق الطرق واستصلاح الأراضى وزراعة القمح أو دعمها ...

وأسبابى فى ذلك بسيطة وواضحة ومنطقية . أهمها أن عصر وزارة الثقافة لم ينجب أديبا فى قوة أدباء ماقبل هذا العصر (هل أنجبت واحدا فى قامة المنفلوطى أو الرافعى أو العقاد أو الزيات أو البشرى أو أبى حديد أو هيكل أو تيمور أو شوقى أو حافظ أو محرم أو الجارم أو محمود حسن إسماعيل أو غيرهم فى شتى المجالات ؟) . ثم إن وزارة الثقافة لم تصنع دورية أدبية واحدة تتباهى بها الأجيال مثل " الثقافة " و" الرسالة " و" مجلتى " و" الفتح " وغيرها ؟ أيضا لم تصنع سينما تعلم وتمتع وتحرك ، بل لم تصل بكل ما أنفقته إلى مستوى أفلام إسماعيل يس !!

إن المشهد الثقافى الراهن يشير إلى فساد الثقافة التى تتبناها السلطة وإخفاقها الذريع فى تحقيق الحلم القومى الثقافى .. وكل مانجحت فيه هو الترويج للثقافة الفاسدة الوافدة ، والزراية بثقافة الأمة والتحريض ضدها ، ويكفى أن الفريق المهيمن المحظوظ كلما بدا له أن ينتقص منتقديه ، اتهمهم بالظلامية والتطرف والإرهاب !

بالطبع لا يستطيع أن يتهمهم صراحة بالإسلام كما يفعل رفاقه فى تركيا مثلا ، ولكنه يريد أن يؤسس انطباعا يخدم الأعداء التاريخيين بتجميل صورتهم وتنفير الأمة من دينها وهويتها .. وهو لعمرى خطب جلل ، أن تقوم الثقافة الرسمية على الترويج لثقافة الأعداء والزراية بثقافة الأمة !

الأمثلة أكثر من أن تحصى والمطبوعات والأعمال الفنية التى تنتجها الثقافة الرسمية تشير إلى ذلك بأصرح عبارة وأوضح كلام ، وتؤكد على منهج فاسد تتبناه وزارة الثقافة ، ومعظم الأقسام فى الصحف القومية والحزبية .

ولا يقولن قائل : إن النجاح الذى تحققه مكتبة الأسرة مثلا تقوم به وزارة الثقافة ، تدليلا على دورها الإيجابى .. فالقاصى والدانى يعلم أنه لولا المبادرة الشخصية للسيدة حرم رئيس الدولة وتأثيرها القوى على الجهات المشاركة فى المشروع ، ماظهر إلى النور ، ولا عرف طريقه إلى الناس ،

ولا يعتقدن الفريق المهيمن المحظوظ أن الدنيا ستظل تبتسم له ، أو أن التاريخ سينسى سلوكه المشين ضد الأمة ودينها وحضارتها . . أو وقوفه المخزى فى دائرة الاستبداد خادما رخيصا يناوئ حرية الشعب وإرادته وحقوقه لمشروعه . والله غالب على أمره .

***

المشروع القومى للترجمة رب ضارة نافعة !

ذهبت ذات مساء إلى المجلس الأعلى للثقافة كى أشارك فى احتفال أدبى بالشاعر الأديب الراحل على الجارم – رحمه الله – فوجدت الاحتفال قد تأجل ، ورأيتنى فى ساحة المجلس وحيدا غاضبا بسبب الوقت والجهد اللذين أهدرتهما سفرا من أعماق الريف حتى أعماق الزمالك دون أن يخبرني أحد بتأجيل الموعد ! ولكنى بعد مقابلة الأمين العام خرجت راضيا فقد أهدانى مجموعة من الكتب المنشورة فى المشروع القومى للترجمة الذى يتبناه المجلس الأعلى للثقافة ويشرف عليه .

والمشروع سلوك إيجابى فى الميدان الثقافى لا ينكره إلا جاحد ، وقد علّمنا ديننا الحنيف الإنصاف ، ومن الإنصاف أن نشيد بهذا المشروع ، فى الوقت الذى لا نُغفلت فيه مشروعا سلبيا من المؤاخذة والانتقاد .

وأول ماسرنى فى المشروع التفاته إلى الشرق من خلال المثنوى لمولانا جلال الدين الرومى ، وهو عمل ضخم قام بترجمته والتعليق عليه وشرحه الراحل الغالى " إبراهيم الدسوقى شتا " – رحمه الله – ولعل هذه أكمل طبعة وأوفاها عرفها العرب المعاصرون للمثنوى ، بعد جهود جليلة بذلها آخرون من العرب والفرس والمستشرقين .

والالتفات نحو الشرق ضرورة حضارية لأسباب شتى ، أولها أننا ابتعدنا كثيرا عن الشرق لحساب الغرب الاستعمارى ، حتى انطبق علينا المثل القائل " القط لا يحب إلا خنّاقه " ! صحيح أن الغرب يملك طاقة ابتكارية

حديثة ومتقدمة فى مجال الآلة والحركة والسلوك ، تفوق مافى العالم كله ، ولكن الشرق – مع كل ظروفه – يملك تجارب أخرى تستحق منا أن نتعرف عليها ونفهمها ونستوعبها ونستفيد بها فى حدود المتاح . إن توسيع مصطلح " الآخر " ليشمل الشرق مسألة ضرورية وموضوعية ، فهناك الصين واليابان وماليزيا وإندونيسيا وكوريا والهند وباكستان وإيران ، وغيرها ، وكلها تملك من التجارب مايوجب على أى عاقل أن يقف أمامها ويتحاور معها .

وثانى هذه الأسباب ، أن الشرق يرتبط بنا بأواصر قربى وأخوة فى الأغلب ، وأواصر حضارة وتجارة بصفة عامة ، وقد أهملنا الشرق إهمالا شبه تام ، مع أن أبناءه ، وخاصة الأشقاء ، مازالوا حتى الآن مشدودين إلينا وإلى قضايانا التى يعدّونها قضاياهم ، ولا أنسى يوم زرت " بنجلاديش " أوائل عام ١٩٩٤ ، ورأيت العيون تفيض مودة وتعبر عن قلوب مفعمة بالعواطف والمشاعر الحارة تجاه مصر وأهلها وأزهرها وعلمائها وتراثها .. لقد رأيت احتياطيا استراتيجيا من القوة والبشر تملكه مصر ويملكه العرب فى بنجلاديش ، وقس على ذلك باكستان والهند وماليزيا وإندونيسيا وإيران .

وثالث هذه الأسباب ، أننا نقلنا عن الغرب وتوابعه (فى أميركا اللاتينية) كل شيء تقريبا من أدب وفكر وثقافة ونظريات وسلوك ، ولكننا – الآن – لا نعرف إلا قليلا عن آداب الشرق ، وخاصة الدول التى تشاركنا ثقافة واحدة عمادها الإسلام ، وأداتها – أحيانا – العربية الفصحى .

لا شك أن كثيرا من أدبائنا اليوم لا يعرفون شيئا عن الجمهوريات الإسلامية المستقلة والأكراد وغيرهم ، مع أن هذه المناطق تحفل بأدب إسلامى غنى فى معناه ومبناه ، وأفكار عظيمة وقيم عليا أبدعها أدباء ممتازون ، طغت على شهرتهم أحداث بلادهم الدامية ومآسيهم المزمنة !

وإذا كان الالتفات إلى المشرق من خلال " المثنوى " يمثل بداية محمودة فى المشروع القومى للترجمة ، فإن ترجمة بعض الكتب ، وخاصة تلك التى تتناول فلسفة الحضارة ، وتبحر فى العقائد والنظريات تحتاج إلى فضل اهتمام يتفق مع أهمية الموضوعات المترجمة ، لقد صدرت ضمن المشروع عناوين مهمة مثل : الموت والوجود – دراسة لتصورات الفناء الإنسانى ، أثينة السوداء – الجذور الأفرو آسيوية للحضارة الكلاسيكية ، رسالة فى التسامح ، التنوع البشرى الخلاق – تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية ، الوثنية والإسلام – تاريخ الإمبراطورية الزنجية فى غرب إفريقية ...وهذه العناوين وغيرها تمثل بلا شك موضوعات حيوية تحرك الفكر ، وتثير الوجدان ، وتشد إلى الحوار والمراجعة ، ومن ثم يصبح

الاكتفاء بمقدمة قصيرة " روتينية " للعمل المترجم غير كاف ، بل إنه فى بعض الأحيان يثير من البلبلة والشكوك ، أكثر مما يضيف إلى القارئ و المتلقى ، خذ مثلا كتاب " الموت والوجود " الذى سبقت الإشارة اليه . إنه كتاب ضخم يناقش قضية محورية بالنسبة للإنسان الفرد ، والأمم عامة ، ولكن مؤلفه – وفقا لثقافته وتصوراته – عالج القضية من خلال منظور جزئى يعتمد على موروثه الثقافى الخاص ، مهملا تصورات أخرى عن الفناء والوجود فى الحضارات الشرقية ، القديمة والإسلام .. إن اعتذار المترجم بالنيابة عن المؤلف فى هذه المسألة لا يكفى ، لأن القارئ – أى قارئ – يحتاج إلى معرفة التصورات المغايرة كى يستطيع المقارنة والموازنة ، وهنا كان لابد – وهو ليس عيبا – الاستعانه بمتخصص فى الموضوع ليشير إلى هذه التخصصات ، ويشرحها ، ويستكمل جهدا كبيرا ، ينبغى ألا نهدره من أجل " شوية ملح " .

ثم ما نحلم به بالنسبة لمشروع الترجمة القومى ، هو استعادة المترجمين العظام الذين يجمعون إلى نصاعة البيان العربى ، وعيهم باللغة المنقول عنها ، فقد عانينا طوال عقود مضت ، من لغة رديئة سطحية ، جعلت قراءة المترجمات تلوثا فكريا وذوقيا ، ننزه هذا المشروع عنه إن شاء الله ، وأظن أن الوصول إلى المترجمين العظام سهل وهين وممكن ، لو قلبنا قوائم اتحاد الكتاب أو نقابة الصحفيين أو نوادى هيئة التدريس بالجامعات .. تحية للمشروع القومى للترجمة وبالله التوفيق .

***

الحداثة والأحداث

فـى المنعطفـات التاريخيـة التـى تنعطـف إليهـا الأمـم سـلبا أو إيجابـا ، يبـرز بوضوح دور الفن ، ونقصد به فن الكلمة ، أو الفن الأدبـى بأنواعـه المختلفـة ، إذ يبدو لهذا الفن الـدور الأكبـر فـى صـياغة الوجـدان الاجتمـاعى والقـومى لمواجهة الأحداث وتوجيهها فى الطريق الصائب والملائم ، بحكم أن صـناع الكلمة هم العيون التى ترى مالا يراه العامة ، وتبصر مالا يبصـره الجمهـور .. فصـانع الكلمة أقدر فكريا وثقافيا علـى الرؤيـة التـى تتجـاوز الحاضـر إلـى المستقبل ، وتـدرك الأبعـاد الخافيـة والأعمـاق غيـر المنظـورة ... ومـن ثـم ، يصبح الانحراف فى مجـال الكلمـة عمـلا خطيـرا وشـائنا ؛ يصـل فـى بعـض الأحيان إلى درجة الخيا نة .

أمتنا العربية الإسلامية تعيش مرحلة خطرة بكل المقـاييس ، حتـى تتعاورهـا المحن من كل صـوب ، والمشـكلات الداخليـة والخـارجيـة فـى معظـم البلـدان تستنزف الكثير من الجهود والموارد والأفراد . ويطمع الغربـاء فـى مواقعهـا الاستراتيجية وثرواتها المعدنية والاقتصادية ، ولا يدخرون جهـدا فـى سـبيل تحقيق مطامعهم وغاياتهم .

ويتحـتم علــى أمتنــا أن تواجــه ظروفهــا بــالوعى العميـق والفكـر الواضــح والصــياغة النقيــة ، كــى تتجــاوز المحــن ، وتنطلــق إلــى البنــاء والتأصــيل والابتكار .

الفن فى هذا السياق لـه دور القيادة ، استشـعارا لوظيفتـه ، وتطبيقـا لاهدافـه ، ومن ثمن فإن الذين يفصلون الفن عن الماضـى أو الواقـع ، يمثلـون انحرافـا كبيـرا عـن وظيفـة الفـن وتطبيقاتـه ، ويقـدمون إنتاجـا عبيثـا عـدميا شـريرا ،

حتى لو نعته أصحابه بألف وصف براق مثل الحداثة والتقدم والتنوير ... إلخ . فهذه الأوصاف لا تغنى عن الطبيعة الشريرة لإنتاجهم شيئا .
لقد صار الموضوع المفضل عند الذين تخلوا عن وظيفة الفن هو السخرية من الذات الالهية ، ثم الحديث عن " الجسد " لغة وكيانا ومتعة ووطنا .. وكما نرى فإن حصر الفن فى هذا السياق وحده يكشف عن خواء رهيب فى الفكر والتصور ، يجعل من الفن أداة رخيصة للعبث والدمار .ولا ريب أن المقولات الخاطئة التى تناصر هذا التوجه من قبيل أن الفنان أو الأديب لم يعد يملك غير جسده يعبر به ومن خلاله ، دفاع متهافت لا يستحق عناء الرد أو المناقشة لأنها مقولات نبتت فى خواء العبثية العدمية الشريرة .
هل من اللائق أن ينسج الشاعر قصيدة حول " جسده " ، ويوهمنا بأن هذه غاية الشعر ومنتهى الإبداع فى الوقت الذى تمزق فيه قذائف الأعداء " أجساد " أخوتنا وأبنائنا فى جنوب لبنان مثلا !
هل من اللائق أن يفرغ لهجاء الذات الإلهية ، فى الوقت الذى يبيد فيه الصرب والكروات شعبا مسلما فى البوسنة والهرسك ؛ لمجرد انتماء هذا الشعب إلى الإسلام ؟
هل من اللائق أن يقدم شاعر ألغازا وأحاجى فى كلام غير مفهوم بحجة الحداثة ، وشعوب الأمة تحاصر بالجوع والقتل والملاحقة فى عديد من الأماكن ؟
ماوظيفة الفن إذا إن لم تكشف للناس عن طبيعة الأحداث التى تهز الأمة وتهدد كيانها ، وتنذر بالكوارث والمستقبل المظلم ؟
إن الفن الذى يتبنى الشذوذ الفكرى والانعزال عن المجتمع ، هو فن آثم ، وجريمة متحركة ، حتى لو ادعى الحداثة أوغيرها من النعوت والأوصاف ... ولا شك أن الأمة تملك فطرة سليمة تستطيع بها أن تميز بين الفن الراقى الذى يعبر عن وجدانها وأمانيها ، وبين الفن الخائن الذى يربض فى دهاليز التجديف والانحلال .

***

مؤتمرات بلا عائد

مؤتمرات أدباء الأقاليم ... لماذا ؟ وما أهميتها ؟ وما عائدها ؟

سؤال يتكرر كلما أعلن المسئولون عن إقامة مؤتمر أدبى فى الأقاليم هنا أو هناك ، ويرافق هذا الإعلام صخب وضجيج .. أدباء قاطعوا ، أدباء وافقوا ، صحافة تدافع عن هؤلاء ، وأخرى تؤيد أولئك ، والنتيجة تدخل من الإدارة المحلية أو غيرها ، وتنقل أجهزة الإعلام ما جرى من صراعات ومماحكات ومشاحنات ، ثم بيان ختامى فيه توصيات كثيرة ، لا يعلم أحد جدواها ، أو منتهاها ، وينفض المولد ، ثم على المقيمين إزالة آثار المؤتمر وتوابعه !

والتفرقة الجغرافية بين الأدباء مسألة غريبة حقا ، فأدباء العاصمة يمثلون طبقة عليا ، وأدباء الأقاليم يعدون من الطبقة الدنيا ، وهكذا تتحقق تفرقة عنصرية أدبية عجيبة فى أواخر القرن العشرين على طراز التفرقة العنصرية العرقية والطائفية .. والدليل على ذلك أن القوم يأتون بالأدباء من سكان القاهرة إلى الإقليم – مكان المؤتمر – لإشعار أهله أنهم فى البال وغير منسيين ؛ وأن السادة سيأخذون بأيدى أدباء الأرياف حتى يصلوا إلى غاياتهم فى الشهرة والاعتراف !

هذه المؤتمرات لها مخصصات مالية ضخمة ، وهيئة عليا تشرف عليها وتتابعها وتنفق على المؤتمرين إعاشة أو إطعاما وارتحالا وترفيها ... ثم نكتشف فى النهاية أن الحصاد متواضع بل هشيم !

ولك أن تتأمل ماتنشره الصحف وتذيعه الأخبار عن بحاث هشة ، ونصوص متواضعة ، ونتائج ضعيفة !

والسؤال هو : لماذا ؟ وما الأهمية ؟ وما العائد ؟ إذا كان الحصاد هشيما ، والمحصول خرط القتاد ؟

إن نظرة إلى المؤْتَمِرين تؤكد أن النجوم اللامعة دائما هم أهل القاهرة أو القادمين منها ، وأن الأضواء تسلط عليهم دائما ، ثم إنهم هم الذين يتكلمون ، وهم الذى يحكمون ، وهم الذين يكرمون ، ومن يقف جانبهم من أهل الإقليم ، فهو مجرد سد خانة ، وعطف من الأعلى على الأدنى ، أو مكافأة من صاحب الفكر والمثال على التلميذ والتابع !

لا ريب أن أهل الإقليم الطيبين بسطاء في تفكيرهم ، فطريون فى نظرتهم ، لذا يتعاملون مع ضيوفهم القادمين من القاهرة بكل المودة والصفاء ، ظنا بأنه يوم عظيم فى حياتهم إن شرّفهم هؤلاء – بعد أن تنازلوا – وحضروا إلى ديارهم ، فالترحيب ، وحسن الضيافة ، والكرم .. صفات يجب التحلى بها حتى ينتهى المهرجان أو المولد الأدبى الذى تقيمه الثقافة الجماهيرية ! .

القضية إذا توقفت عند هذا الحد ، فإن الأمر يمكن احتماله ، ولكن إذا رأينا أن نجوم القاهرة الذين يحضرون هذه المؤتمرات ، وأدباء الأقاليم الذين يشاركون فيها ، يتكررون فى كل المؤتمرات ، ويمثلون اتجاها واحدا ، أو تيارا واحدا ، أو جماعه واحدة ، والقليلون الذين يشاركون من غير هؤلاء وأولاء ، لا تأثير لهم ولا كيان ، ويأتون عادة عن طريق الموظفين الذين يسعون إلى رضاء المسئولين الكبار عنهم وعن أدائهم الوظيفى " الثقافى !"؟

أما التيارات الاخرى فلا وجود لها !

لست مغاليا حين اقول إن تبديد أموال الدولة فى مثل هذه المؤتمرات عمل لا يقره ضمير ، ولا يرضى به عقل ، ولا يوافق عليه منهج سوىّ !

إن مناقشة قضايا الأدباء فى الأقاليم ينبغى أن تكون نابعة من خلالهم ، هم أعرف الناس بها ، وأقدر على تفهمها ، وأجدر بحلها ، ولهم فى ندواتهم الخاصة والعامة ، فى قصور الثقافة أو فى غيرها ، مجال رحب للحوار الخلاق والإنتاج المثمر .. وعلى فرض أن الأمور تقضى بعقد مؤتمر لهم ، فإن هذا المؤتمر يجب أن يكون محليا شكلا وموضوعا . أبحاثه من أدباء الإقليم ، ودراساته من نقاده ونصوصه من أدبائه ، ومحاوره من سكانه والمقيمين فيه .

لفت نظرى فى المؤتمرات المعتادة ، أنه يتجه بالتكريم إلى أشخاص بأعينهم سواء من أدباء العاصمة ، أو من تابعيهم فى التوجه والتصور ،مما جعل مسألة " التكريم " هذه تبدو لغزا غير مفهوم ، وإن كان تفسيره سهلا وبسيطا يكمن فى الانتماء الى " الشلة " المؤثرة ، او الجماعة الفاعلة !

وأقول بإخلاص إن أدباءنا العظام فى العاصمة أو الأرياف ، لم يحققوا إبداعاتهم الجيدة ، من خلال مؤتمرات إقليمية أو غير إقليمية ، ولو أن هذه المؤتمرات أنجبت العقاد أو الرافعى أو طه حسين اأو توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ أو السحار أو باكثير أو محمد عبدالحليم عبدالله أو .. لطالبنا بعقدها ليلا ونهارا حتى نشفى من أدعياء الأدب ، ومتسلقى الثقافة وأصحاب المصالح ! متى يوضع حد لهذه المؤتمرات عديمة الجدوى ؟

***

المثقف الجميل !

كان عباس محمود العقاد ، عامل تلغراف فى مطلع حياته ، ومع ذلك استطاع أن يكون الكاتب الجبار ، وكاتب الوفد الأول ، وكاتب الأمة الذى يتطلع إليه الناس ليدافع عنهم ، ويدفع بهم نحو الأمل والعمل ، لم يكن عدم المؤهل الدراسى نقيصة فى حياته وتاريخه ، ولكنه كان حافزا للقراءة والاطلاع والمعرفة ، فقدم عصارة فكره فى موضوعات متنوعة ، لعل أبرزها دفاعه المجيد ضد خصوم الإسلام وخدام الغرب بمعسكريه (آنئذ) الشيوعى والرأسمالى ، وكان أستاذا فى حدديثه عن اللغة العربية وآدابها وتاريخها وفلسفتها ، كما كان أسلوبه دقيقا محكما يعبر بحق عن " العقاد " العظيم .

أين هذا من عمال التلغراف المعاصرين ، الذين لا يفقهون نحوا ولا صرفا ولا تركيبا ، ولا يملكون موقفا مبدئيا ولا فلسفة أصيلة ولا فكرا حقيقيا ، إنهم ورفاقهم يمثلون نموذجا للمثقف الفهلوى الذى لا يملك عذوبة " الفهلوى " المصرى وخفة دمه .

إنهم يشبهون " خيشة البواب " الذى صار مطربا ، " وعطية العجلاتى " الذى أصبح رجل أعمال ، و" عبده كفتة " الذى أضحى صاحب مجموعة (جروب كفتة) ، وبائع البوية الذى أمسى " مبدعا " ، وعامل المحارة الذى بات " صحفيا " ....

" عبدالله نديم " كان " تلغرافجيا " ، ولكنه كان ثوريا ، وفقيها ، وأديبا ، وكاتبا عظيما ، وكان وعيه بلغته ودينه ووطنه وثقافة قومه وثقافة الآخرين

دافعا إلى اشعال النار فى الأعشاب السامة والطحالب غير المفيدة ، والحكومات العميلة ، والقيادات الخائنة ، والصليبية الهمجية الاستعمارية ،
" مصطفى صادق الرافعى " كان كاتبا فى محكمة ، ولكنه كان صاحب البيان الرفيع ، والمدافع عن الإسلام تحت راية القرآن ، وكان كاتب الروائع : من وحى القلم ، المساكين ، رسائل الأحزان ... وكان وكان ...
أين العقاد والنديم والرافعى من " تلغرافجية " هذه الأيام الذين انضموا إلى قبيلة خيشة والعجلاتى وكفتة وبائع البوية وعامل المحارة الذين تمردوا على وظائفهم الأساسية – وهى وظائف شريفة فى الواقع – ولبسوا لبوس غيرهم ، وصاروا بالقوة الجبرية الاستبدادية مثقفين وكتابا ، يتحدث عنهم أنصارهم ، ورفاقهم بالفخر والاعتزاز ، ويصفون بعضهم بالكاتب الكبير والكاتب الجميل ؟
ثم مامعنى الكاتب الجميل ؟ هل الجمال المقصود هنا هو جمال العينين والشفتين وشياء اخرى مثل الشعر المنكوش والشارب الطويل والذقن المهوش ؟ دعنا من أوصاف الجمال المزعوم ، ولنر بعضا من أوصاف المثقف الجميل فى الحقل الثقافى .. لأنها لا تسر الثوريين فى الزمان السحيق ، ولا المتآمرين فى الزمان العتيد ..
خيشة المثقف يفرض نفسه بقوة التنظيم الحزبى اليسارى – غالبا - فى مجالات النشر والإذاعة والتلفزة والسينما ... كتابته الرديئة التى لا توجد علاقة مودة بينها وبين النحو والصرف والبلاغة والفن الجميل ، حاضرة فى كل صحيفة ، وكل مجلة ، وكل دار نشر ، وكل شبكة إذاعية – عدا إذاعة القرآن الكريم لأنه لايؤمن به – وكل قناة تلفزيونية ، وكل شركة انتاج سينمائى ، وخاصة لو كانت حكومية ، فخيشة ورفاقه يعتقدون أن أموال الحكومة المصرية وأموال الشعب المصرى حق لهم ، وميراث شرعى قاصر عليهم ، ولايستحقها أحد غيرهم ، لا سيما لو كان من أولئك الظلاميين الرجعيين المتطرفين الإرهابيين ، أعداء التطبيع ، الذين لايفقهون معنى العلمانية ، ولا قيمة الديمقراطية ، ولاتجليات ثقافة السلام (!!) .
خيشة البواب مثقفا ، يعنى حصوله على جوائز الدولة بمستوياتها المختلفة ، وجوائز النفط بألوانها المتعددة ، وجوائز التفرغ حتى لو بلغ الستين وتجاوزها ، وفرغته الحكومه المصرية الى الأبد وقررت له معاشا لا ينقص مقداره ، بل يزيد بحكم التضخم الاقتصادى .
خيشة البواب مثقفا ، يعنى مشاركته لبقية الخيشات فى اقتسام الكعكة الثقافية أيا كان وزنها أو رائحتها ، فهو شريك فى رئاسة التحرير والإدارات

والأمانـات ، وهـو ضـيف دائـم فـى المـؤتمرات الثقافيـة المحليـة والعربيـة ، والندوات الدولية والإقليميـة ، وهـو المتحـدث دائمـا فـى الفضـائيات المبثوثـة مـن لنـدن وبـاريس ورومـا والدوحـة والقـاهرة ودمشـق وبيـروت وتـونس والجزائر وصنعاء العتيقة .....

خيشة البواب مثقفا ، يعنى أنه الوحيد المسموح لـه بمعرفـة التأويل الصـحيح لقصائد الشعر ، ونصوص الروايات ، وكتـب التـراث ... أمـا الآخـرون فهـم جهلــة وغوغــاء وظلاميــون ومتطرفــون ، ولا يفهمــون معنــى القــراءة والاستنارة .

خيشة البواب مثقفا ، يعنى أنه موجود فى صحف النفط ، ومجلات النفط ، وكتب النفط ، يتقاضـى المكافآت الضخمة ، ثم ينشر فى مصر أن ثقافـة الصحراء النفطية من وراء التدهور الثقافى المصرى ، وانتهاء المركزيـة الثقافية للقاهرة .

وخيشة غالبا ، هو مدير المكاتب الصحفية والثقافية لوسائط النشر والاذاعة والقنوات النفطية وغي النفطية فى القاهرة !

ثم هو علـى اتصـال وثيق دائم برفاقه فـى العواصـم العربيـة كافـة ، نفطيـة كانـت أو ثوريـة أو بـين بـين ! وهـو مـا يهيـئ لـه أن يغيـر جلـده باسـتمرار وبسرعة فائقة !

خيشة البواب مثقفا ، يعنى أن يردد فى أحاديثه وكتاباتـه الرديئـة كلامـا غيـر مفهوم ، ويذكر أسماء السادة ،" رولان بـارت " و" نـاحوم تشومكى " و " تودروف " و " أناكرستوفا " و " دريدا " ، ليقنعنا أنه يفهم مالا نفهم ، وأن علينا أن نخلع جلدنا الثقافى البـالى الـذى ارتـديناه منذ أربعـة عشـر قرنـا مـن الزمــان ، وإلا حقــت علينــا لعنــة الاســتنارة والتقــدم ، وصــرنا ظلاميــين متحجرين !

خيشــة البــواب مثقفــا ، يعنــى قبــل ذلــك وبعــده أنــه مــع الاســتبداد وضــد الديمقراطية (بلاش الشورى) ، وأنـه مـع الصـهيونية وسـلام الصـهيونية (يعنـى القبـول بالعبوديـة) ، وأنـه مـع استئصـال الاسـلام فـى شـتى صـوره ، وكافــة مظــاهره حتــى يرضــى عنــا الاســتعماريون الصــليبيون الهمــج فــى واشنطن ولندن وباريس ...

قد ياخذ " خيشـة " وصـف الهمج للاستعماريين الصليبيين ، ليدلل علـى " ظلاميتى " " ورجعيتى " ؛ ولكنى أحيله علـى مقاتـل المسلمين وحدهم منذ الحـروب الصـليبية حتـى الآن ، ولا داعـى لـذكر مـافعلوه فـى إفريقيـة وآسيا وإندونيســيا والشيشــان وكوســوفا والبوســنة والهرســك ... ونهــبهم الــدائم والمستمر للبترول والثروات الأخرى!

صديقى خيشة ... لقد حققت نصرا عظيما فى خدمة الشيطان الأكبر ، والشياطين الأصغر ؛ مع أن أستاذك كان تلميذا لهنرى كورييل الصهيونى ، ولم يكن حفيدا لاحمد عرابى الفلاح ... ما أتعسك ؟

كتب للمؤلف
الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولا : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراته.
٢- تيسير علم المعاني .
٣- الأدب الإسلامي : الفكرة والتطبيق .
٤- محمد- صلى الله عليه وسلم –في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة) .
٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية .
٦- القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة منقحة ومزيدة ومجلدة وفاخرة).
٧ - تطور النثر العربي في العصر الحديث .
٨- مدرسة البيان في النثر الحديث .
٩- تطور الشعر العربي في العصر الحديث .
١٠ – المدخل إلى البلاغة النبوية .

ثانيا : كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دسوق – كفر الشيخ) :

١- الإخوان والنظام : برنامج الحزب المستحيل .
٢ - وجوه عربية وإسلامية .
٣ - الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) .
٤ - الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة) .
٥ - الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة) .
٦ - الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية).
٧ - في رياض النبوة (٣ أجزاء)
٨ - شعراء وقضايا : قراءة في الشعر العربي الحديث .

ثالثا : إسلاميات :

١ - مسلمون لا نخجل (٤ طبعات).
٢ - حراس العقيدة (٣ طبعات).
٣ - الحرب الصليبية العاشرة.
٤ - العودة إلى الينابيع .

٥ - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس .
٦ - ثورة المساجد .. حجارة من سجيل .
٧ - هتلر الشرق .
٨ - جاهلية صدام وزلزال الخليج .
٧ - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان) .
٨ - النظام العسكري في الجزائر .
٩ - حفنة سطور .. شهادة إسلامية .
١٠ - الأقصى في مواجهة أفيال أبرهة .
١١ - الإسلام في مواجهة الاستئصال .
١٢ - تحرير الإسلام .
١٣ - دفاعا عن الإسلام والحرية .
١٤ - التنوير .. رؤية إسلامية .
١٥ - معركة الحجاب والصراع الحضاري .
١٦ - العصا الغليظة .
١٧ - واسلمي يا مصر.
١٨ - ثقافة التبعية : المنهج . الخصائص . التطبيقات .
١٩- انتصار الدم على السيف.
٢٠- التمرد الطائفي في مصر : أبعاده وتجلياته .
٢١ – العمامة والثقافة : دفاع الإسلام وهجوم العلمانية .
٢٢ – عباد الرحمن وعباد السلطان .
٢٣– الأقلية السعيدة : يوميات التمرد والتسامح !

رابعا : كتب أدبية ونقدية :

١- الغروب المستحيل (سيرة كاتب) .
٢- رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) .
٣- الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
٤- موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة) .
٥- حوار مع الرواية في مصر وسورية .
٦- لويس عوض الأسطورة والحقيقة .
٧- الوعي والغيبوبة : دراسات في الرواية المعاصرة .
٨- إنسانية الأدب الإسلامي .
٩- حصيرة الريف الواسعة .
١٠- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة .
١١– الحكاية كلها معاصرة(دراسات في الرواية) .

خامسا : إعلام :

١- الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية .

سادساً: كتب للأطفال :

١- واحد من سبعة .

سابعاً : كتب محققة :

١- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية .
٢- أحسن ما كتبت .

ثامنا – كتب معدة للنشر:

- الحداثة العربية : المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) .
- الإبادة والمقاومة : الشعب الفلسطيني لا يموت .
– خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة) .
- الحلم والدهشة (قراءة أدبية) .
– اللحم الإسلامي المستباح .
- حضرت التبعية .. وغابت الهوية .
- صالون الشعر والأدب (أعلام وقضايا) .
- نداء الفطرة .
- اخلع إسلامك .. تعش آمنا ؟!
- ثقافة تزغيط البط !
- محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم !
- القيم الإسلامية في رسائل النور
- كهنة آمون !
- المدافعة والمداولة – قراءة في السنن والتحولات .

ثامنا : كتب إعادة طبع :

١ – التغريب وتجلياته (لويس عوض نموذجا) .
٢ – حوار مع الرواية في مصر وسورية .
٣ – حصيرة الريف الواسعة .
٤ - إنسانية الأدب الإسلامي .
٥ – الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
٦- أهل الفن وتجارة الغرائز .
٧ – معركة الحجاب والصراع الحضاري .
٨- التنوير رؤية إسلامية .

الفهرس

القسم الأول
قراءات نقدية

أولا : الشعر :

ثانيا : السرد :

ثالثا : رؤى :

القسم الثانى
أعلام وأدباء

القسم الثالث

قضايا ثقافية